



لوحة للفنان حسين يونس

مجموعتنا

عبد الحميد يونس



Bibliotheca Alexandrina



0098704

الأعمال الفكرية



الهيئة المصرية
العامّة للكتاب

مجلسنا

مِنْهُمْ

د . عبد الحميد يونس



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أعمال فكرية)

مجتمعنا

د. عبد الحميد يونس

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف

الإشراف الفني:

محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق،
تتفجر منه ينابيع المعرفة
والحكمة من خلال إبداعات
رواد النهضة الفكرية المصرية
وتواصلهم جيلاً بعد جيل -
ومازلنا نتشبت بنور المعرفة
حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم
بكتاب لكل مواطن ومكتبة في
كل بيت.

شُيِّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» من الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثري الوجدان بكتاب في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلئ الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترسخ في وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

«المجتمع المصري عبارة عن أمة موحدة متجانسة
موصولة التاريخ منذ القدم العصور إلى الآن، وهذا المجتمع
الكبير تنظمه جماعات صغيرة متفاوتة القدر والعمر،
ولهذه المجتمعات الصغيرة، أو لهذه النظم الاجتماعية،
علاقات ووظائف، مثلها في ذلك مثل الجوارح والأعضاء
في الجسم الحي، يكمل بعضها بعضا».

د. عبد الحميد يونس

تمهيد

كلُّ امرئ ينزع بطبيعته الإنسانية إلى أن يعرف نفسه المفردة ، ولم يبدأ هذا النزوع بتلك العبارة التي نُقشت على أحد المعابد اليونانية في العصر القديم ، تدعو الآحاد إلى أن يتعرفوا على أنفسهم بأنفسهم ، ذلك لأن هذا النزوع سمةٌ من سمات الإنسانية ، بدأت معها ، وارتقت برفيها ، وتعمّدت بتعمّد الحياة في العصر الأخير . وهذه المعرفة - أو لعل الأصح أن نقول - وهذا النزوع إلى المعرفة ، هو الذي يحقق شخصية الفرد ، ويجعل له « الخصوصية » التي يمتاز بها من سائر الأفراد ، في مجتمعه الكبير ، ومجتمعه الصغير على السواء . ولولاها لأصبح الأفراد آحاداً يُعرفون بنوعهم وجنسهم فحسب ، كما تعرف الآحاد في الأشياء والنبات والحيوان . . . بصفات عامة مشتركة ، وهي إن تميزت ، فإنما تميز بظواهر تقاس بالأشكال والألوان والأحجام وما قد يكون بين أجزائها من نسب تختلف بها عن غيرها من الأجزاء الموجودة في جنس أو نوع أو صنف . أما أفراد النوع الإنساني ، فلهم قسماهم التي تدلّ على كل واحد منهم ، وهي ليست مجرد القسمات الظاهرة على الوجوه فقط فهذه أمارات خارجية ، ولكنها قسمات نفسيةٌ تحقّقها شخصية الفرد ، ويظهرها اتجاهه الخاص في التخلّق والسلوك .

وعلى قدر تحرّرها من الكبت ، ومن الخوف ، ومن الاستغلال

والتسخير ، تنمو شخصياتنا الفردية ، ويعظم نصيبنا من الفطرة الإنسانية ، وقليل من الناس استطاعوا في العصور القديمة والوسطى ، أن يحققوا شخصياتهم ، وأن يرتفعوا بكراماتهم الإنسانية فوق الضرورات التي يشترك الإنسان فيها مع غيره من الأحياء . وإنك لتُدير وجهك إلى الحياة الماضية ، وتنظر فيما سطره الأولون ، وفيما خلفوه من تراث مادي شاخصي فيأخذك العجب ، من أن « الفردية » لم تكن طابع جميع الناس ، ولكنها كانت طابع الأقلين ، اكتسبها بعضهم بالرسالة التي طُلب بأدائها ، وتحمل مسئولية تحقيقها ، فعرف لحياته ، ولحياة غيره من بني جنسه غاية تدفع إلى العمل ، وقيمة عليا تكافئ في ذاتها هذا العمل ، ولو تعرض في سبيل ذلك لأذى قد يجسه عن المجتمع أو يُودي بوجوده ، وقد يتجاوز ذلك إلى أهله وعشيرته وذريته ، واكتسب بعضهم الآخر هذه الفردية بظروف اجتماعية أو اقتصادية خارجية ، يسرت عليهم مؤونة العيش ، وحررتهم من رِبقة الحاجة ، وأسر الضرورة ، وتسخير الغير . وإنه ليقال بحق أن اكتشاف « الشخصية » في مطلع القرن الماضي كان أعظم كشف حصلت الإنسانية عليه ، وهو كشف لا يمكن أن يقاس به كشف قطر غير مأهول أو قارة مجهولة ، ولا يمكن أن يقاس به كذلك كشف قوة كامنة أو طاقة مكنونة في عنصر من عناصر الأشياء التي ندرج بينها ، بل إنه كشف يعظم حتى على ما يفاخر به عصر النهضة الأوروبية من أنه عرف العقل الإنساني ، وحرره ، أو حاول أن يحرره ، من رواسب الخرافة ، وشوائب التخليط . بيد أن هذا الكشف

المجيد للشخصية الإنسانية الفردية ، وإيمان الآحاد بها ، عرض الناس في القارة الأوروبية ، وفي غيرها ممن تأثروا هذا الكشف لتجربة قاسية ، دفعتهم إلى أن يتصوروا ذواتهم أعياناً مُتفردة عن غيرها ، منسلخة عن مجتمعتها ، غير مرتبطة بالآخرين ، وغير مسئولة عن الآخرين ، وانقلبت المزية من الكشف ، وهي مزية لا تنكر ، لأنها حررت الأفراد من عبودية المحاكاة ، ومن نطاق الشكل المحكم المحسوب في السلوك الخاص ، إلى رذيلة تبرّر التخلص من العرف الصالح ، والخروج على بعض قواعد الأخلاق ، وعدم الاعتراف بالفضائل الثابتة ، في جميع العصور ، وجميع البيئات - وليس من الغلو أن نقول إننا في مصر لم نصل جميعاً إلى اكتشاف الشخصية الفردية التي تجعل كل واحد يستطيع أن يحقق ذاته نعم أفاد المثقفون من ذلك الكشف ، وأذاعه الأحرار منهم . ونجح آحاد من المفكرين في تطبيقه على ذواتهم ، وبرزت بعض الشخصيات المتفردة في الفكر والأدب والفن والدعوة إلى إصلاح الحياة ، ولكنهم يعدّون على الأصابع ، واستغلّ الذين احتكروا الخير دون سائر المواطنين ، شيوع هذا الكشف ، ولوّثوا مصالحهم في الاحتكار والاستغلال والاستعباد بألوان الحقوق الديمقراطية ، وأذاعوا شعارات مضلّة تفتنوا في صياغتها ، وتسجيع ألفاظها ، وفصلوا بينها وبين ما تحمل من معنى ، حتى أصبحت اللغة عندهم أصواتاً ومخارج ، واطمأنوا إلى ما تستحدثه في العقول والقلوب من خدش سائغ ، ثم مضت الحياة في طريقها ، وهي لا يمكن أن تتوقف بحال من الأحوال ، فحطمت

الأصنام ، وحقت بإرادتها الشعبية حلم الأجيال بتحرير الفرد من الكبت ، ومن الخوف ، ومن الاستغلال ، ورفعت الحواجز التي كانت تحول بين الفرد ، وبين تنمية شخصيته ، وتحقيق وجوده الذاتي .

والحياة دائماً تُفيد من تجاربها الموصولة الكثيرة ، ومن أجل ذلك كان العمل على تحرير الفرد ينتظم - ولا نقول يسائر أو يوازي - العمل على تحرير الجماعة ، وكانت الجهود التي تسعى إلى تخليص الشخصية الفردية من رواسب القرون ، تنتظم الجهود المبذولة لتصحيح الأوضاع الاجتماعية ، والعلاقات الاقتصادية ، ورفع مستوى المعيشة للأفراد والطبقات ، وإقامة الحياة على أساس وطيء متماسك يرتكز على التوحيد بين المواطنين وبين الدولة ، والتوازن بين الإنتاج والخدمات ، والتكافل بين الطبقات ، والتعاون بين جميع العناصر التي يتألف منها المجتمع المصري .

ومن أجل هذا كله كان لزاماً علينا أن نعرف أنفسنا المفردة ، معرفتنا لأنفسيتنا الجماعية ، فالفرد يستمد وجوده من جماعته الخاصة ، وجماعته العامة معاً ، وهو لن يستطيع أن يعرف ذاته إلا إذا عرف مجتمعه الذي يعيش فيه وله ، ويأخذ منه أكثر مما يعطيه . وإذا كان نزوع الفرد إلى معرفة نفسه ، قد انتهى به إلى أن يجعل لهذه النفس علماً قائماً برأسه ، له أصوله ومناهجه وتجاربه أيضاً ، فإن نزوع الجماعة المتبلورة المتجانسة إلى معرفة نفسها العامة ، قد انتهى بها آخر الأمر إلى أن تجعل في مجال علم النفس شعبة قائمة برأسها لوجدان الجماعة .

ولا مجال لتكرار القول بأن علم النفس يتفرع إلى شعبتين ، تعرض الأولى للأفراد وتلاحظ نزعاتهم وأهواءهم ومجالات مشاعرهم وأفكارهم وما لهذا كله من الأثر في شخصياتهم وألوان سلوكهم . وتعرض الثانية للجماعات ، وتفسر ذاتياتها المختلفة ، وأهواءها المتباينة ، وما يرسب في أطوائها من تراث الأجيال وما تنزع إليه واعية أو حاملة ، وتُفرّع أعمالها على هدى الدراسة المتأمله البصيرة . وكما أن هناك ضربين من علم النفس الفردي : أحدهما وصفي والآخر تحليلي ، فكذلك لعلم النفس الجماعي ضربان : أحدهما وصفي والآخر تحليلي أيضاً . يعالج الأول اتجاهات جماعات بعينها ، يقص أثرها ، وهو يساير التاريخ في ذلك ، ويحاول الثاني أن يُحلل تلك الاتجاهات ويتعرف إلى مصادرها وبواعثها ، ويخطط القوانين العامة التي تخضع لها هذه الجماعات من النشأة والتطور جميعاً . وهذا الضرب الثاني أحدهما ، وهو يكاد يحلّ على الأيام محل فلسفة التاريخ . ولعله قد أصبح الآن أهم ما يعنى به علم النفس الجماعي بأسره . أضف إلى ذلك أن علم النفس الفردي لا يستطيع أن يقوم بمهمته في تشخيص الفكر إلا إذا أدرك البواعث الجماعية التي أنشأت هذا الفكر الفردي ، وما رسبته فيه مما تسرب في جبلته أو غريزته أو بقي يخالط الوعي ويقيّد الإرادة ، ويحدد السلوك .

والمجتمع المصري عبارة عن أمة موحدة متجانسة موصولة التاريخ منذ أقدم العصور إلى الآن ، وهذا المجتمع الكبير تنتظمه جماعات صغيرة مُتفاوتة القدر والعمر ، ولهذه المجتمعات الصغيرة ، أو لهذه النظم الاجتماعية ،

علاقات ووظائف ، مثلها في ذلك ، مثل الجوارح والأعضاء في الجسم الحي ، يكمل بعضها بعضاً ، وتقوم كل جارحة منها بوظيفة خاصة ، ومن ثمّ كان من الضروري - ونحن نترع إلى معرفة نفسنا الجامعة - أن نعي هذه الجوارح الاجتماعية ، وأن نلاحظ ما بينها من وشائج ، وأن ندرس ما لكل منها من عمل ووظيفة ، وأن نتبين إلى جانب هذا كله ، موقف الفرد باعتباره مواطناً مصرياً ، من مجتمعاته الخاصة ، ومن شعبه الكبير ، وما يُكسبه الانتساب إليها من حقوق ، وما يفرضه عليه من واجبات ، وما يُصور له مجاله الحيوي ، وينتججه من ملامح نفسه ، ومقومات شخصيته . . .

ولما كان التاريخ لا يقوم على الحكاية التفصيلية للواقع في الماضي ، وإنما يقوم على تصنيف الوقائع البارزة ، والأحداث المشهورة ، ومحاولة إدراك أسبابها القريبة والبعيدة ، ونتائجها الظاهرة والمباشرة ، فقد أصبح إلزاماً على الدارس لجماعة من الجماعات ، أو مجتمع من المجتمعات ، أن يصطنع منهجاً آخر ، أقرب إلى التفصيل ، وأدنى إلى الواقعية من منهج التاريخ ، وهو إذا أفاد من الدراسات الاجتماعية المختلفة ، ومن علم النفس الاجتماعي والجماعي ، فإن هذه الفائدة لن تبلغ به الغاية التي يريد من رسم صورة مُقارنة لمجتمعنا المصري ، ذلك لأنه يحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى ملاحظة ذاتية تستخرج رواسب الماضي ، وتراث الأجيال ، وتلفظن إلى الأعضاء أو الجوارح الاجتماعية التي فقدت وظيفتها ، ولم تبق منها إلا نُدبة أثرية تدل على وجودها السابق ، وإلى النظم التي

تتحور بتحوّر وظائف الجديدة التي تفرضها الحياة الجديدة ، والتي ينبغي لها أن تخلق العضو كما يقول أصحاب علم الحياة.. ولكي ندرأ عن معرفتنا لمجتمعنا ، ما شاب الدراسات السابقة ، من أنظار خارجية ، كان مفروضاً علينا - ونحن نحاول تصوير هذا المجتمع من الداخل - أن نعتمد على تحقيقه لشخصيته العامة بالتعبير الفني ، وبالأدب الشعبي بصفة خاصة ، فإن هذا الأدب نندرج فيه أحلام الشعب المصري ، ومثل الشعب المصري ، وآمال الشعب المصري ، كما تندرج فيه تجاربه المريرة في النزوع إلى التحرر ، وآلامه الحادة في مغالبة الظلم والاستعباد ، ثم إن هذا الأدب الشعبي يصور المجتمع من السفح ، أو من أسفل الكيان الاجتماعي ، يصوره له من باطنه ، ويرسب تراثه العريق ، ولا يحتفظ منه إلا بما يحسن بعائده عليه ، ويقاومه بوظيفة له ، ويرفض منه حلقات يثرها من كياله كلما القرصت فاعليتها الحيوية . وفي هذا الأدب . . في الملاحم والأغاني والأمثال والوصايا خلاصة معارف عملية تتلقاها أجيال عن أجيال .

ولقد أصبح لزاماً علينا كأفراد وجماعات وشعب ، في هذه الفترة المحيطة من تاريخنا أن نشبع ذلك النزوع إلى معرفة ذاتيتنا الجامعة ، وهو بالنسبة لنا بعد أن رفعت الحواجز ، وحطمت الأغلال ، فرض عين لا فرض كفاية . . فرض عين لأنه ضرورة لكل إنسان يعي إنسانيته ، ولأنه الوسيلة الكبرى لتحقيق الشخصية الفردية والعامة معاً ، فهو يجعلنا ندرك أولاً مكاننا من التاريخ ، وثانياً مكاننا من الحضارة ، ويُعيننا على أن

نتمثل حقوقنا ، وأن نهض بمسئولياتنا ، لا بالنسبة لأنفسنا واجيالنا الحاضرة فقط ، ولكن بالنسبة لذرائنا وللإنسانية كلها أيضاً . وإذا كان أصحاب التاريخ الطبيعى يقولون إن شرط الحياة هو تمام الملاءمة بين الكائن الحى وبين بيئته ، فإن ما نشهده اليوم من تغيير أساسى من بيئتنا المادية والاجتماعية يلزمنا ، ونحن الناهضون بالتغيير ، المعاونون على التطور ، أن نحتفل بنظمنا الاجتماعية ، وأن نعمل على اختيارها ، وأن ندرس وظائفها ، وذلك لكى نجعلها مسايمة لما ينبغى أن تكون عليه ، قابلة للتطور ، وعاملة عليه فى آن واحد . . . وبهذا يصبح المجتمع ضرورة مرُجوةً من الحياة الإنسانية المتحضرة ، ويصبح كريماً على منظماته وعلى أفرادها ، وبذلك يتمّ التوازن الحيوى بين الفرد وبين مجتمعه ، ويلتقى وجدانه بوجودان مجتمعه ، وتندمج عزته فى عزّة مجتمعه . . .

اكتشاف الوطن

قال الزعيم الإيطالي « ماتريني » في القرن الماضي وهو يدعو الشباب إلى الوحدة الإيطالية : « إنكم تبحثون عن وطن وهي فطرة غرسها الله في قلوبكم ، ويدعوكم صوت أبطالكم . . . إنكم إخوة » . . . ولقد كنا في انتفاضاتنا الوطنية الماضية نبحث عن وطننا مصر ، ونجد في الكشف عن مقوماته وخصائصه ، وعن إمكانياته الطبيعية والبشرية ، فلا نكاد نصل إلى شيء . . . وتركزت الوطنية في نفوسنا وعقولنا ، فكرة مجردة لا حدود لها ولا أهداف ، تلونها العصبية ويشكلها الطغيان الفردي ، ويعبث بها الاستعمار . . . إن وطننا مصر ليس مجرد خريطة في مصور جغرافي ترسم حدوده بالخطوط والألوان ، وليس فكرة ما أياً كانت ، يتلقفها بعضنا عن بعض أو يحفظها من كتاب ، وليس عاطفة مبهم لا تحفز إلى عمل ، وليس جيلاً واحداً من الناس ، وليس طبقة معينة من الضارين في أرضه . . . ولكنه هبة الله ، وتراث أحقاب وجماع أجيال ، وواقع حياة . . . وكل مواطن صورة حية ناطقة للوطن ، فيه طبيعة بيئته ومجد ماضيه ، وجهاد حاضره ، وأمل مستقبله .

وإذا كان المستعمرون والطفاة قد لفوا هذا الوطن في مجموعته وفي آحاده بالضباب ، حتى لا يكتشفه المواطنون ، وحتى تتحكم فيه طائفة من غير أهله تساندها قلة خيَّلت لنفسها أن الوطن وقف عليها وحدها ،

تحتكر خيراته ، وتبدد ثمراته ، وتغمرض أعينها عن إمكانياته ومقدراته ، فإن أحرار هذا الجيل قد بددوا الضباب ، ورفعوا الغشاوة ، وجدوا يكشفون عن الوطن الذى طال بحث المواطنين عنه . . نحن جميعاً هذا الوطن ، والكشف عنه هو الكشف عن أنفسنا . . ولقد مضى الزمن الذى كنا فيه منقسمين إلى بيئات وأقاليم ، وكان الفرد منا يدرج على أرض لا يعرفها ، ولا تكاد تكون له بها صلة ، وأصبحنا نعرف وطننا بطاقته المادية والبشرية ، وبتراثه العريق فى الماضى ، وبإمكانياته ومقدراته فى الحاضر ، ونصنع مستقبله الذى يكافئ تاريخه ، والذى يضعه فى مكان الصدارة من العالم المتحضر كما وضعه الله فى موقعه الجغرافى الفريد ، فى ملتقى القارات الثلاث ، وعند مجمع البحرين وبين صحراوين عظيمتين .

ولسنا نريد أن نقف من زاوية المؤرخين الأجانب الذين كانوا يحكمون على مصر من خارجها ويلونون آراءهم فيها واعمى أو غير واعين بموقف حكوماتهم أو شعوبهم من مصر ، وإن كانوا يقدمون بين يدي أنظارهم التاريخية بتمهيد يصور الوطن المصرى تصويراً جغرافياً عاماً يضعها فى مكانها من خطوط الطول أو خطوط العرض ، ثم يصفون تربتها الصفراء والسوداء والخضراء ، ويقيسون سطحها ، ويوازنون بين واديه ونجدها وكثيبها ، فإن ذلك لا يغنينا شيئاً ، ونحن نريد أن نستكمل اكتشاف وطننا المصرى ، لنترك انطباعه فىنا ، وتأثيرنا نحن فيه ، فالوطن ليس ، ولا يمكن أن يكون بيئة مادية جغرافية فحسب ، نلاحظ

التغير فيها بالمنطق الجغرافى أو التاريخى الذى يقف عند السطح ولا يتغلغل فى البواطن بل لا يكاد يفتن إلى الدلالات الروحية والنفسية ، فالعامل البشرى بما فيه من نزوع ومعرفة واتجاه هو مضمون هذا الوطن المادى ، وهو معناه الذى لا معنى له سواه ، وهو فوق هذا وذاك يؤثر فى شكله ، ويُغيّر بعض التغير فى صورته ، فالنيل — مثلاً — قد نُحوّل عن مجراه بفعل مينا أول من عُرف من الفراعين ، ثم ضبّطت الإرادة البشرية فيضانه ، ووزعت مياهه ، وسوف تتحكم قريباً فى مجراه ، وفى تيّاره ، وتجعله واحد المنسوب طوال العام تقريباً . .

وإذا كنا نريد مقومات الوطن المصرى من الناحية الطبيعية ، وهى مقومات كيّفت التاريخ المصرى ، وشكلت حياة المصريين ، وتغلّغت فى نفوسهم ، وطبعت وجدانهم العام ، ووجداناتهم الفردية الخاصة ، هذه المقومات تتألف من ثلاث ظواهر كونية كبيرة تصلح فى ذاتها مجتمعة لتكون شارة أو رمزاً للوطن المصرى ، وهذه الظواهر الكونية الثلاث مرتبطة ومتفاعلة ، وهى لا تبرز فى موضع بروتها فى هذا الموضع الفريد ، وهى تُضاف إلى الحقيقة الأولى فى موقع مصر الفذ من إفريقية وبين أوروبا وآسيا ، تحرس مدخل البحر الأحمر ، وتشارك فى توجيه الحياة فى البحر الأبيض ، وتشع الحضارة إلى مدى بعيد فى كل اتجاه . . وأول هذه الظواهر الكونية الكبيرة الثلاث هى الشمس التى تكاد تبدو سافرة النهار بطوله على مدى العام ، ولا ترمد عينها إلا قليلاً ، ومن هنا قدسها المصريون الأقدمون ولاحظوا دورتها ، وقاسوا عليها فترات الزمن

في اليوم ، نهاره وليله ، وفتراته من السنة فصولاً محدده ، وجعلوا من ذلك كله تقويماً من أدق التقاويم ، ثم فطنوا بعد ذلك إلى تأثيرها في الأشياء والأحياء بما تُسبغه من حرارة ، وما تُشعه من ضوء ، ووصلوا بينها وبين الإيجاد ، وجعلوها رمز الحياة ، ثم أدركوا ما بينها وبين نيلهم من تفاعل ، حين رأوها تصعد الماء إلى السماء ، فأطلقوا على السحاب النيل المرتفع ، وقبسوا منها الوضوح والبساطة ، وعدم التعقيد ، والنظام ، والاستقرار ، وأخلوا من دفنها ما يعمر قلوبهم بالحرارة ، ثم جعلوا منها رمزاً للضمير ، أو العين التي ترقب أبداً فعال الناس ، وكما أنها مذ تطلع في الأفق الشرقى إلى أن تغيب في الأفق الغربى ، تعين الناس على التمييز بين الشّعاب والمسالك ، ومختلف الأشياء والكائنات ، فقد أصبحت سفينة الملايين ، تطلّ منها عين تميز بين الخير والشر فيما يصدّر من الناس من أفعال وحركات ، ولا يزال المصريون يتأثرون هذه الظاهرة الكونية في فطرتهم ، وفي وجداناتهم ، وفي أخلاقهم ، ولا تزال أعضاء أثرية من عقيدتهم فيها ، وهى أعضاء غير ذات وظيفة نراها في النقش على الكعك ، ونراها حين يلتقى الصغار بأسنانهم في عين « الشّمّوسه » ! ونراها في غير ذلك من تصرفات يأتيها البعض بالقصور الذاتى دون أن يتوقف لحظة ليعرف مصدرها القديم الموغل في القدم ، والشمس في خلد المصريين شمسان . . شمسان على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة ، شمس كبرى يتصوّرونها أقرب ، وهى منذ الربيع إلى قبيل الشتاء ، وشمس صغرى ، فيما بقى من السنة . وتقويمهم القديم

لا تزال له وظيفة حية فاعلة إلى الآن ، يحتكون إليه إذا أرادوا معرفة
الحو بدقة ، أو إذا أرادوا التهيؤ للغرس والحصاد جميعاً ، وهم لا يزالون
يحفظون الأمثال الشعبية التي يعبرون بها عن الفصول ، وخصائص كل
منها ، بل عن الشهور وخصائص كل منها ، وهذا التقويم الشمسي هو
الذي أعطى أوروبا والعالم الغربي التقويم الحاضر ، وعلى الرغم مما أدخل
عليه من تصحيح أو ضبط فإن انطباق التقويم الشمسي المصري لا يزال
أدق في الدلالة على الطبيعة المصرية ، ومن ثم بقيت وظيفته وعاش مع
المصريين يرجعون إليه في ضرورات حياتهم العملية ، وهم يحفظون أسماء
شهوره ، ويصوغونها في أمثالهم ، وإن نسوا مسمياتها التي أطلقت عليها
أو أخذت منها .

وثانية الظواهر الكونية الكبيرة هو الرمز الخالد على مصر . . يدل
عليها ، ويقترن اسمها به دائماً ، لأنها قطعة منه . . إنه هذا النهر العبقري
الذي لا نظير له بين أنهار العالم جميعاً من طوله ، وانتظام فيضانه ،
واستقامة مجراه ، وعرف المصريون فضله عليهم ، ومكانه منهم ، فقدسه
قدمائهم ، كما فعلوا مع الشمس ، وتصوروا في الماضي البعيد أنه ينبع
من الجنة ، وهذا النيل ينحدر إلى مصر ، ويستقل بنفسه في واديها ،
فلا يلتقي به رافد واحد في تربتها ، وهو الذي شق طريقه في أطواها ،
ووصل بين وسط أفريقية ، تلك القارة العظيمة الممتدة إلى الجنوب ،
وبين البحر المتوسط عند تفاعل الحضارات ، وعند احتكاك الشرق

بالغرب ، ، وهذا النيل هو الذي لقل التربة الخصبة إلى هذه البقعة
 من العالم ، وجعلها أرضاً سوداء ، ثبتت الخير ، وتختلف عن الصحراء
 الممتدة عن يمينه وعن شماله ، وواديه يضيق في مصر العليا ثم ينفرج
 وينبسط ابتسامة الكف في مصر السفلى ومن هنا فرق المصريون القدماء
 بين الأرض السوداء التي تزرع ، وبين الأرض الحمراء التي تملك بها
 الصحراء ، ولظروا إلى اتجاه ليلهم ، فسايروا في اتجاهه البشري
 والخصري ، ورسموا الجهات الأصلية على مقتضى ذلك فكان الاتجاه ،
 البحري ، والاتجاه القبلي ، وتصوروا جميع الأنهار في القديم على شكله
 حتى إذا رأوا النهرين في أرض الجزيرة ، تعجبوا وظنوا معكوس الاتجاه ،
 وأخذ المصريون عن النيل دأبه ومنابرته ووفاءه وزوعه المستمر إلى البناء
 والنفع والخير بلا تفريق ، بل أخذوا عنه غصلة تكاد تكون من أمهات
 غصاتهم وهي النزوع الدائم إلى الوحدة القومية ، فإن النيل الذي يمر
 من الجنوب إلى الشمال ، أو من الجهة القبلية إلى الجهة البحرية ، يجمع
 كل البهات وكل الأقاليم ، وهو بالنسبة إلى مصر ، شريانها الحيوي ،
 والناظر في أدب الشعب المصري يجد بلا كد وبلا عناء مصداق ذلك
 النزوع إلى الوحدة ، ، يجده في الأساطير القديمة التي جعلت من أوزيريس
 رمزاً للخير والعلم والنفع ، وجعلته ينقل إلى خارج حدود مصر إشارة
 إلى امتداد الرسالة المصرية المصرية ، إلى مدى أبعد من حدود الوطن
 المصري ، فهو الذي لقل معارف الزرع والحصاة وعلم غير المصريين
 كيف يبنون آلات الري ، وكيف يطبّون لألمهم ، وينمون إلثاجهم ،

ويؤثرون الخير في علاقاتهم ، ثم استطردت الأسطورة القديمة فجعلت
أوروريوس يُقطع أشلاء ، تُفترق وتُبدل في الأقاليم المصرية الأربعة
عشر على يد النزوح إلى الشر ، فإذا برؤسجه تجدد في البحث عنه وتظهر به
في المرة الأولى ، وتعيده إلى الوطن ، ثم تجدد في المرة الثانية ، فتجمع
ما تفرق من أشلائه وتلدب الحياة في أوصاله مثله في ذلك مثل النيل
يجمع ما تفرق ، ويبعث الحياة ، ويؤثر العلم والخير والبناء .

وفي الأدب الشعبي الذي لا يزال حياً في قلوب الناس وعقولهم ،
ولا يزال سردها على ألسنتهم ، ملحمة عربية أخذها الشعب المصري كما
أخذ الفنان موضوعاً بارزاً من موضوعات التاريخ ، أو واقعة عظيمة من
وقائع الأبطال ، ولقاء بين مطالب حياته الوجدانية . وسوف
بروحك أن تعلم أن هذه الملحمة تصور في صدق الخيال لزوع الشعب
المصري إلى التوحّد بفعل ليله العظيم . إنها الملحمة التي كان يحفظها
أبناء الجيل الماضي من المثقفين وغير المثقفين على السواء ، والتي لا يزال
الشعب يطلق أسماء أبطالها على بنيه وبناته ، إنها ملحمة بني هلال .
لبطلتها اسمها « البخارية » ولها في مقام التوفيق بين هذا الاسم وبين
« إيريوس » لذلك تعسف لا غناء فيه ، وحسبنا أن نذكر أن البخارية هي
التي تجمع مفردات هذه الملحمة ، وهي شريانها الأكبر ، وهي رمز
الوفاء للزوج والولد والعشيرة والموطن ، ولا أظن أنها المصادفة وحدها هي
التي جعلت تلك الكتلة الخشبية الكبيرة التي تجمع بين « الصغير »

وبين « الكبير » في « الساقية » المصرية وترمز بذلك إلى وحدة الجهاز كله ، تسمى هي الأخرى بالجازية !

وإلى جانب هذه السمة البارزة المكتسبة من النيل . . سمة النزوع الأبدى الدائم إلى الاتحاد القوي ، نجد خصيصة أخرى لا تقل عنها خطراً هي أن اختيار النيل لمجراه بين هاتين الصحراوين العظيمتين الشاسعتين جعل الموطن المصري يحتفظ بأهله ، ويتشبث به ، وجعل الجاذبية البشرية إلى الداخل ، بعكس ما نراها عليه في أقطار أخرى ، جاذبيتها البشرية ، إلى أطرافها أو إلى خارج حدودها ؛ وهذه الخصيصة دفعت بالعناصر التي تفد إلى الوطن المصري أو تقدم عليه ، تنطبع إذا استقرت بالطابع المصري . . وهي الخصيصة التي اشتهرت عن هذا الوطن ، والتي عرّفها كل من تعرض للدراسة ، والبحث في خصائصه ومقوماته . في « التمسير » صفة أساسية من صفات البيئة المصرية ، أو قل خليقة فطرية من خلائق مصر ، فما من فرد ، وما من مجموعة من الأفراد ، تلبثوا في هذا الموضع الفد حتى نازعتهم أنفسهم إلى الاستقرار ، وما هو إلا جيل أو جيلان وتفتى خصالهم التي جاءوا بها ، وتبرز بدلاً منها الطبيعة المصرية الغلاية التي لا تقاوم ، والنيل هو الذي علم المصريين فلاحه الأرض ، ونظمها لهم مواسم ريّ ويزر وحصاد ، وعلى ضفافه نبتت آلة الحضارة الأولى ، وهي ورق البردي ، وأقلام القصب ، فكتب المصريون ، ووصلوا بين آحادهم ، وسجلوا أعمالهم ، وثبتوا تصرفاتهم ،

ونظموا أملاكهم . . وربطوا ما بين الجليل الشاخص والجليل الذى سبقه ،
والجليل الذى يكرّ بعده فتواصلت المعرفة وانتظمت الحياة وكانت خلة
« الاستمرار » المتجدد أبداً ، ميزة أخرى من ميزات النيل التى لا تعد ،
وليس صحيحاً ما يزعمه بعض الباحثين الأوروبيين من أن مصر لم تتطور ،
فإنها على العكس من هذا تماماً احتفظت بالتواصل بين أجيالها ومراحل
تاريخها وفترات سيرتها ، وكانت أمانة كل الأمانة على تراثها ، فلم تكن
سلفية خالصة ، ولا ثابتة جامدة ، ولا رجعية تستقبل الحياة بظهرها ،
ولنما كانت مستأنية فى تطورها ، مثلها فى ذلك مثل نيلها فى حركته
الدائبة فى أناة ، وإذا وضع فى طريقها حاجز ضخّم فعلت به ما يفعل
النيل ، فسارت فيه أو حطمته ، ومن العجيب أن ورق البردى انقرض
من العالم وحلت محله هذه الأوراق التى تجمعها الكتب بين دفتيها ،
وذهب النسخ ، وجاءت المطبعة ولا يزال الاسم الذى أطلق على ورق
البردى Papyrus هو الأصل الذى اشتقت منه الأسماء التى تطلق
على الورق الحالى فى اللغات الغربية !

وتأتى بعد النيل الظاهرة الكونية الثالثة التى شكلت الحياة فى مصر
وجعلتها تميل إلى الاستقرار فى وادىها الخصيب أزماناً متطاولة ، وإن لم
تعزلها عن العالم حولها ، وهذه الظاهرة هى الصحراء التى تمتد عن يمين
النيل وعن شماله فإن هذه الظاهرة هى التى أسبغت على الموطن
المصرى ، صفة المحافظة على التراث المادى الشاخص ، فإن تربتها كانت
من الجفاف ، ومن الأمانة بحيث تحرص على ما يخترن فيها ليوم قريب

أو بعيد ، وإليها يرجع الفضل في الاحتفاظ بالأعلاق والنفائس من آثار الأقدمين تشير بذاتها على معارفهم وخبراتهم ، وأمجادهم أيضاً ، وهي التي أعانت على نزوع المصريين القدماء إلى المحافظة على أجدادهم وحوائجهم ، ووصلت بين مصر وبين الجماعات البشرية الأخرى في الشمال الشرقي والشمال الغربي ، وإذا كانت الصحراء المترامية تكتنفها الأسرار من كل جانب ويتعرض السائر فيها للمكاره والمخاوف فإن مصر تفاعلت من الناحية البشرية عن طريق الصحراء بالشعوب الأخرى ، ومن ثم كانت الصحراء الشرقية بصفة خاصة ، نقطة التفاعل بين الجزيرة العربية بمعناها المتسع وبين الوطن المصري ، كما كانت الصحراء الغربية فيما بعد نقطة الاتصال بين مصر وبين العرب في شمال إفريقيا ، وبفضل هذا الموقع بين نقطتي الاتصال هاتين ، أصبح الوطن المصري نقطة الارتكاز في العالم العربي .

لم يكن الوطن المصري إذن ، كما زعم أولئك الباحثون في عزلة عن العالم ، فقد اتصل بغيره من الأوطان عن طريق الصحراء وعن طريق البحر وأعطى وأخذ ولكنه احتفظ بطابعه المصري الفذ ، واضطردت الحياة فيه ، واتصل تاريخه منذ أقدم العصور ولم يفرط في تراثه الحضري وسائر التطور في ثبات وأناة ، وطبع الشعب الذي عاش في هذا الوطن بنحصال ثابتة ، اكتسبها من نخصال شمسه ونيله وصحرائه جميعاً ، وكان ، قدر ما تسمح بذلك الظروف يفيد من العناصر الطبيعية في التعمير والبناء وينقب عن المعدن النفيس والمفيد في جوف الصحراء وبطن الجبل . .

فعل ذلك في دائرة ضيقة عند ما احتكر الخير آحاد وعند ما غلبت عليه عناصر أجنبية آثرت نفسها بكل شيء وسخرته لخدمتها ، وشكلت المادة لراحتها دونه ، ولتعتها وحدها ، ولقد سبق أن قلنا إن الشخصية الفردية مرتبطة بالشخصية العامة ، وإن اكتشاف المرء لذاته منوط باكتشاف وطنه لأنه لم يعد وطن فرد واحد ، أو حفنة من الآحاد ولم يعد مستعبداً لعنصر أجنبي يستغله ويحتكر ثمراته ، ويعوق تطوره . . إنه وطن الجميع ، إنه وطن أجدادنا ووطننا ووطن أبنائنا وأحفادنا ، فمن واجبنا أن نعرفه كما ينبغي أن تعرف الأوطان ، وهذه المعرفة لا يمكن أن نحصل عليها من الخارج أو نصل إليها من أعلى ، أو نتصور استخلاصها من مجرد الدراسة في الكتب ، أو من مجرد النظر في الظواهر والوقوف عند السطوح ، وملاحظة العلاقات والنسب والأشكال والألوان والأحجام والموازين والأنواع ، ولكن هذا الكشف عن الوطن إنما يكون بالعمل الدائب المستمر على بنائه واستغلال جميع طاقاته ، والتنقيب عن جميع كنوزه ، ومصر الثورة تطالب كل مواطن بأن يعرف ذاته معرفته لوطنه ، وتهتف به أن يجد نفسه ووطنه بعد أن تخلصت الحياة من تلك الفردية الضيقة ، والأنانية العشواء ، وقضت على آفة الارتجال التي دفع إليها الافتقار إلى المبادئ والأهداف ، وإنه ليساير فطرة الوطن المصري في التأزر والعمل ، ألا يتخلف أحد عن البحث في الكتابان والأودية والنجاد عن الذهب الأصفر والذهب الأسود ، وعن المعدن المشع ، وعن مادة الصناعة الثقيلة ، وعن إصلاح الرقعة الزراعية والتوسع فيها ، واستخلاص الحركة

من المساقط والسدود ، واستحداث التوازن بين البيئة المادية والبيئة البشرية وإقامة الحياة كما يعلمنا النيل ، وتبصرنا الشمس ، وتلقنا الصحراء على التكافل والتعاون والتضامن في سبيل الخير والبناء والحضارة ، وهذا هو الطريق الوحيد المستقيم للكشف عن الوطن وهو – كما قال ماتزيني – فطرة غرسها الله في القلوب ، ودعوة يهتف بها أبطالنا . . إننا إخوة .

وجدان الشعب

رأينا أن التاريخ وحده لا يمكن أن يطلعنا على وجدان الشعب المصرى ، لأنه يصنف الحوادث ، ويحتفل بالأسباب والنتائج ، ويتسم بالتعميم . وقد أخذ هذا التاريخ فى صورته الرسمية إلى سنوات قليلة خلت ، يقص سيرة مصر من قمة الكيان الاجتماعى ويرتب مراحل هذه السيرة بالدول الحاكمة ، وإن كانت من عنصر أجنبى لا تربطها بالمجتمع المصرى وحدة أصل ، أو علاقة جوار ، أو ارتباط تاريخ ومن ثم كان علينا أن نتجه وجهة أخرى وأن نرغب عن التعابير والصور التى صدرت تحقيقاً لوجدان القلة الإقطاعية أو إرضاء لأقوال الحاكم الأجنبى وحاشيته . ولم يكن الشعب المصرى بدءاً بين الشعوب حتى تصح عليه تلك القالة التى وصفه بها لفيف من الدارسين الغربيين عندما ذكروا أنه كغيره من الشعوب العربية عاجز بفطرته عن تصوير وجدانه القومى والتعبير عن ذاتية العامة باللمحة . وكان هؤلاء الدارسون فى حكمهم هذا ، يستقرئون تراثاً قومياً ناقصاً ولا يلتفتون إلى ما أنشأه الشعب لنفسه عن نفسه ، وليس من المعقول أن الشعب المصرى الذى اتسم بعراقة الأصل ، وطول التاريخ والاستمرار المتجدد على مدى الأجيال الكثيرة المتابعة لا يحقق شخصيته بالملامح ، وهى التى تبرز — أكثر من أى شىء آخر — وجدان هذا الشعب بجميع خصائصه ومقوماته :

وإن من يتعرض لهذه الملاحم التي صدرت عن الشعب المصري ،
وعاشت قروناً وقروناً ، يدرك أن بعضها فقد وظيفته الأصلية في التعبير عن
الوجدان القوي ، ولذلك طرحها جانباً ، ونحاجها عن تراثه ، وما لبث أن نسيها جملة
وتفصيلاً ، ولم يبق منها في خلدنا إلا عناوينها ، وبعض صورها وقليل
لا يكاد يُعد من أسماء أبطالها ، ولكن بعضها الآخر ظل قائماً بعمله في
ترسيب التراث وجمع الكلمة ، ودفع الروح المعنوية ، وشجاعة الأمة على
العمل ، والاستنفار للدفاع عن الحبي ، فبقى بقاء وظيفته الحيوية ، وهذه
الملاحم ، وإن احتفظت بفاعليتها الاجتماعية والجماعية ، إلا أنها تلائم
بين صورتها وبين تطور الحياة العامة ، ولا تنفك تعدل في وظيفتها بإسقاط
حلقات ، وإضافة حلقات أخرى ، وإجمال بعض ما كان مفصلاً ،
أو تفصيل بعض ما كان مجملًا وإبراز فضائل تطالبها فترة معينة ، وتجسيم
مثل تقتضيها مناسبة معينة .

وأول ما تطالعنا به هذه الملاحم الباقية تلك السمة التي أصبحت
جزءاً لا يتجزأ من حرفة الشاعر الشعبي ، وهي أن يبدأ حديثه أو شعره
الموقع على آله الموسيقية بالصلاة على النبي وهي ظاهرة لا تحتاج في
تحليلها إلى كثير من التأمل وإنعام النظر ، وبخاصة إذا عرفنا أن الصلاة
على النبي تُقرب دائماً بصفة مميزة ، هي « نبي عربي » أو « نبي تهامي »
أو « سيد ولد عبدان » وتفسيرها في إيجاز الوجدان الشعبي المصري نزع
إلى التذكير بالمثل الأعلى في الحياة الإنسانية أولاً ثم بالتذكير بالعروة
الوثقى بينه وبين هذا المثل الأعلى ثانياً ، وهذه العروة الوثقى وهي العروة وإذا

أضفنا إلى هذه الظاهرة حقيقة أخرى تؤكد لها وهي أن الشعب تغنى أمجاده في سير الفرسان عندما غلب عليه حكام من غير العرب ، أو بعبارة أخرى عندما قبض على ناصية الحياة في وطنه الممالك والعثمانيون ، فإننا لانحتاج إلى دليل آخر يقطع بعروبة الوجدان المصري .

وظهور الشاعر الشعبي ، وازدهار صناعته في مجتمع من المجتمعات يدل بجلاء من ناحية النفس الجماعية على يقظة الوجدان الشعبي ، ونحن نعلم مما سطرته كتب التاريخ والأدب والتراجم ، ومما ذكره الجوابون من شرقين وغربيين ومما سجله المستشرقون من صدور الحفاظ وأهل هذه الحرفة ، أن الشاعر الشعبي كان على الصوت في المجتمع المصري في تلك القرون المتتالية ، وأنه يظل يجوب المدن والقرى في الأعياد والمواسم والحقول العامة بعد الاحتلال الإنجليزي الذي رآه الوجدان الشعبي المصري امتداداً لحكم غير المصريين ، أو بعبارة أخرى كانت مألوفة في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، لحكم غير « أولاد العرب » !

ولقد التمس الشعب المصري عصر البطولة في سير فرسان العرب ، ولكنه أخذ هذه السير وعدّل في وظيفتها القبلية ، وحوّلها إلى وظيفة قومية ، فلم يلق باله كثيراً إلى ما ذكرته تلك السير من أيام ، دفعت إليها هذه العصبية أو تلك ، ولم يحتفل بما قيل من خلاف بين عرب الشمال وعرب الجنوب وانتخب من هؤلاء عنزة وبنى هلال ، وانتخب من أولئك سيف بن ذي يزن ثم أضاف من تاريخه الخاص سيرة الظاهر بيبرس الذي وقف في وجه الصليبيين والتتار وأنقذ العالم العربي من الحشاشين المهوسين ،

وغير من واقع التاريخ لكى يلائم بينه وبين واقعه النفسى ، فبرأه من الرق ووصله بالأشراف ، وربطه بالعرب. ولم يكن صنيع الشعب المصرى كصنيع الشعوب الأوربية ، عندما أحست نفوسها القومية ، ونزعت إلى التعبير عن وجداناتها العامة ، فلقد التمت هذه الشعوب مثلها وفضائلها من بطولة يونان ورومان ، وإن كان أكثرها يتصل بهاتين الحضارتين اتصالاً روحياً وثقافياً فحسب وليست بينها وبينه صلة رحم ، أو وشيجة قربى . أما الشعب المصرى فعبر عن وجدانه بعد أن استكمل عروبته ، من سير فرسان تربطهم به علاقة قرابة ، ورابطة دم منذ عصر يسبق الفتح العربى بقرون وقرون !

ولعل من الخير أن نقف برهة عند تلك العروق التى شابت أدب الشعب المصرى العربى ، وهى شيوع عنصر الخرافة أو الخروج على المؤلف فى صور الأشخاص وأعمالهم خروجاً يسلكها مع الحوارق التى لا تساير القواميس الطبيعية : هذه الخرافة وتلك الحوارق التى لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر إن دلت على شيء فإنما تدل على أن وجدان الشعب ضاق بما يُغفل إزادته فحاول أن يستعوض عنها فى أحلام يقظته بالقدرة المعجزة على طى الزمان والمكان ، وفتح المغاليق الموصودة ، وحل الطلسمات المجهولة ، كما أن تكرار مشاهد الترف والمبالغة فى تصوير الكنوز الظاهرة والمخبوءة وما تضم من ثمين الجواهر ونفيس الحلى ، والتفنن فى وصف القصور الشاهقة ، والبساتين المزهرة المبسقة والحوارى الحسان ، والموائد المكتظة بشهى الطعام وصنوف الشراب ، كل أولئك

يشير إلى أن الشعب المصري أراد أن يستعوض بهذا التخيل عن حاجته الملحة وأن ينقذ في الوقت نفسه احتكار القلة الحاكمة دونه بأطايب العيش ومتاعم الحياة .

ونحن كلما تصفحنا جانباً من الأدب الشعبي ، صبح عندنا أن وجدان الشعب كان متعلقاً بالمثل الديمقراطية في الحكم ، ولم يكن شيوع الملوك والأمراء والأقيال في هذا الأدب ، دليلاً على كمال ولائه لهم ، وتمام رضاه عنهم ، فالطبقة الهندية في كتاب ألف ليلة وليلة تخير منها الشعب المصري ما يلائم فلسفته في الحياة ، فاحتفل بالتعقل في العمل وفي السلوك ، وبالأناة في القول وبعدم الشطط في التصرف والرغبة عن مطاوعة الهوى ، وسورة الغضب ، ونزق اللحظة ، واهتم بالجانب الديمقراطي ممثلاً في حكمة الناصح للملك أو مجسماً في رقابة البيغاء على سيدتها ، وما إلى هذا بسبيل . أما الملاحم الشعبية التي تحكى الوجدان المصري حكاية مباشرة ، فإن الديمقراطية فيها أظهر لأن الفرسان من صميم القومية العربية ، وهم يقومون منها مقام الأب والأخ الأكبر ، في الأسرة ، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز . وشخصياتهم حولها الوجدان المصري إلى شخصيات قومية ، تمثل كل واحدة جانباً من جوانب الحياة العامة ، كالسلطان حسن — في سيرة بني هلال مثلاً — أصبح رئيساً للجماعة يصور فضائلها ، ويبرز مثلها وتتخذ فيه سمتها الذي تحب ، فهو الذي يمسك بين يديه عصا التوازن في الجماعة ، وهو يعطى ولا يأخذ ولا يأنف من المشورة ، ولا يتحرج من طلب النصيحة ، وهو الشعار القومي أيضاً ؛ وتحول أبو زيد من فارس

فى قبيلة إلى قائد بلخيش يقوم على التعبئة والتحصين ودراسة المسالـح والمعاقل والتأهب للملاقاة أى مهاجم واختبار قوة العدو ، والتسرب فى صفوفه . وريادة الطريق قبل أن تتحرك الجماعة فيه وهكذا .

وإذا تحولنا إلى السيرة الثانية التى تحكى وجدان الشعب المصرى حكاية تفصيلية مباشرة أيضاً ، وهى سيرة الظاهر بيبرس ، فإننا نجد العنصر الديمقراطي ظاهراً لا خفاء فيه ، يلمحه المرء فى جميع العناصر ، وجميع الطبقات ، فالرياسة لن تكون بالوراثة كمناصب أشياخ القبيلة فى المجتمع البدوى ، وكمناصب العمدة وشيوخ البلدة فى المجتمع الحضرى ، إلى عهد جده قريب ، ولكنها كانت ثمرة التفانى فى الخدمة العامة ، والتبريز فى الدفاع عن مصالح المجموع ، والانتصار فى مدافعة العدو . وكانت طريقة الوصول إليها مستخلصة من أبرز عمل يقوم به الأفراد فى الجماعة ، فهى عند الفرسان التفوق فى الفروسية ، وهذا التفوق يحصله أصحابه بالتطبيق العملى فى مجال على ترقبه الجماعة وتشهد عليه ، وهى عند غير الفرسان التبريز فى أمجد ما يصبو الأفراد إليه من جهد فى نظر الجماعة .. ولم يكن الوقوف فى وجه العدو حظاً مقسوماً على فريق من المجتمع دون فريق ، ولكنه كان فرض عين على جميع الأفراد القادرين بلا استثناء ، وعلى الرغم من توزع الشعوب العربية والإسلامية ، فإنها كانت تبدو ، فى هذه السيرة وفى غيرها ، عالماً موحداً تكاد ترتفع بين أجزائه الحواجز والحدود ، ومعنى هذا أن الوجدان الشعبى كان أوسع مدى من الحدود الجغرافية للوطن المصرى ، وأنه كان يصل بين الوطنية والقومية والدين بسبب قوى لا يمكن أن ينقسم .

ولما كانت هذه الملاحم ذوات وظائف حيوية وإيجابية ، فإن الشعب المصرى شارك فى إنشائها بتعديل صورتها ، بحيث تلائم طبيعته ومزاجه من ناحية ، وبحيث تساير رأيه فى نفسه ، وفى أبناء عمومته ، وملته من ناحية أخرى ، والوجدان الشعبى المصرى يقوم من هذه الملاحم مقاماً مزدوجاً ، يعبر بها عن ذاتيته العامة ، ويتلوقها ويتفاعل معها ، ويتأثر بها أيضاً . فهو المؤلف والمتلوق فى آن واحد ، ولا حاجز عنده بين العاملين ، ولا فارق بين الموقفين . إنها زاوية واحدة ينظر منها إلى نفسه ، وهو يصور هذه النفس ، ومن ثم التقي فى وجدانه تجسيم المثل العليا ، وتشخيص الفضائل الثابتة كما يتصورها بنقله لحياته ، وحياته من حوله ، وهو يرسم نقلاته لبعض الخصال وبعض الفعال ، رسماً قريباً من الكاريكاتور ، يفضيخ خصلة ، ويبرز خليقة ، ويبالغ فى إبعاد ما يريد أن يظهر نفسه عليه . وصنيع الوجدان الشعبى فى صدق إحساسه بواقعه ، وإدراكه لبعض عيوبه يجعله نزاعاً إلى الإصلاح ، راغباً فى التطور ، متمثلاً لكمال الممكن ، منفصلاً عن ضيقه ببعض ظروفه ، ومتخلصاً من بعض همومه أيضاً ، حتى يستطيع أن يمضى لطيبته مجدداً العزم ، حرّاً الإرادة . وأعانه على هذه السليقة الناقدة فيه ، قدرته البارة على أن يفصل بين نفسه المتألمة أو المتزعجة أو الساخطة وبين الظروف أو المشاهد التى أدت إلى ألمه وانزعاجه وسخطه ، وبهذه الوسيلة يحول الوجدان مأساته إلى ملهاة ، يستعلى عليها ، ولا يمل من التأمل فيها ثم يأخذ بعد هذا كله فى السخرية منها والتهاكم عليها . ونحن نرى مصداق ذلك ، لا فى الملاحم فحسب ، ولكننا نراه فى شخصية

« جحا » التي أصبحت على الأيام رمزاً مصرياً ، مثله في ذلك مثل الشخصيات القومية الأخرى التي ترمز على شعوبها كوليم الطحان ومن إليه . ونرى مصداق ذلك أيضاً فيما أُثر عن الشعب المصري من كلف شديد بالنكتة الساخرة يرسلها في أعصب وقت ، وأخرج موقف ، وأهلك مناسبة . وإذا أردنا أن نحلل الوجدان الشعبي في هذا الصنيع فإننا نلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن تطاول المحن على الشعب وأن محاولاته الكثيرة في التخلص منها كانت تسلمه في بعض الأحيان إلى محن أخرى ومحاولات أخرى ، فوقع في وجدانه أيام احتكر القلة رزقه ، وأيام اغتصب الأجانب الوافدون أرضه ، وأيام سخره أولئك وهؤلاء تسخيرهم لرقيق الأرض يعيش على الكفاف ، ويرى نفسه الجامعة ، وآحاده المفرقة تكاد لا تعي وجودها ولا تشعر بحياتها ، وكأنما تمتد في الزمان ، وتحرك في المكان بلا غاية وبلا قيمة وبلا عائدة . نعم وقع في وجدانه ما يشبه اليأس ، فضعف إيمانه بالعقل ، واطمأن إلى المصادقة ، واحتقر المنطق ، واستخف بالمقدمات والنتائج ، واستهان بالعلل ، وأصبح أدنى إلى إلغاء إرادته ، والاطمئنان إلى القدر الذي يتصرف فيه ، وإلى الاعتقاد بالخط المكتوب على جبينه ، والركون إلى المقسوم . بيد أن هذا كله كان يتبدد إذا لمح في الأفق بارقة أمل في منقذ ، كما أنه لا ينسى قط حلمه الدائم في أن مخلصاً معيناً في زمن معين سيغير هاتيك الظروف ، ويحطم تلك الأغلال ويرفع هذه الحواجز ، ويتيح له أن يعيش كما فطره الله حرّاً كريماً على الحياة وعلى الأحياء حوله .

والنماذج البشرية التي تجسم الحصال القومية والإقليمية ، هي التي تؤلف النكتة المصرية إلى جانب الخروج على منطق العقل ، وإلى جانب المماثلة والمشاكلة والمقابلة في الألفاظ والمعاني . فأنت تجد النموذج المصري العام يجمع بين الفضائل التي يحبها الوجدان المصري في ذاته والعيوب التي يتزعج جاهداً إلى التخلص منها ، وهذا التصوير على تعميمه يقترب من الواقعية ، فهو ذكي الفؤاد ، يفهم الشاردة والواردة والسانحة ، ولا يحتاج حتى إلى مجرد الإشارة ، وهو كريم يعطى ولو كان مُفتقراً إلى ما يُعطيه ، هو ودودٌ يحب الناس ، وهو صاحب مروءة وشهامة ونجدة . . وهذه فضائل يمجدها في نفسه ، ولكنه لا ينسى أنه كثيراً ما يطيع عاطفته وهواه ، وأنه متلاف يذهب بالحادث والتلبد ، وإنه يحتفل باللحظة التي هو فيها ، لا يفكر أبداً في اللحظة التي تعقبها ، إنه يعيش ليومه ولا يذكر غده ، وهذا النموذج المصري العام ، تتفرع عنه نماذج أخرى تحكى فضائل البيئات الخاصة والطبقات الخاصة ، والمهن الخاصة ، وتزاور كما هو شأن النموذج العام ، بين المثل المرجوة ، وبين الواقع المنقود ، وبحول هذه النماذج المصرية نماذج أخرى ، تصور ما بين المصري وبين أبناء عمومته من وشائج قرى ، وتلتقي فيها أيضاً الفضائل بالعيوب ، مسaire لتزوع الحياة إلى الكمال الممكن ، وإلى جانب هذه النماذج وتلك صور مجملة وإن كانت ذوات دلالة تجسم الشعوب الأجنبية والدول غير العربية وغير الإسلامية في تربصها وحيلتها وموقفها من العالم الإسلامي ، والوطن العربي ، والقطر المصري . .

وأدت هذه الحصلة في الاستعلاء على الحياة ، ومحاولة الخروج من إطارها ، والاكتفاء بالتفرج عليها ، والاستخفاف بقيمة العقل ، والكلف بالنقد الساخر المتهكم ، إلى أن يغلب الحزن على الوجدان الشعبي ، فهو الذى يطبع جميع أغانيه وموايله بطابعه ، وهو الذى أدى إلى هذه الصرخات والأناث والتأوهات التى تزدحم بها هذم الأغاني ، وتلك المواويل ، ولكنه حزن "مبهم" غير واضح ، ومجمل "غير مفصل" ، مهما كانت الألفاظ والعبارات ، ومهما كانت الموضوعات والأغراض ، ولو أن الوجدان الشعبي ، لم يواجه تلك الحقبة الطويلة من الظلم ، والاستعباد والتسخير وأقبل على الحياة كما ينبغى ، لتغيرت نبرته وموسيقاه ، ولأصبح هزجاً يؤثر النغم المتقارب السريع الذى يحكى إشباع العواطف ، والرضى بالواقع ، وإكبار الحياة ، ولأصبحت الألفاظ والعبارات فى الأغاني والمواويل تدل مباشرة على القدرة الفردية والقومية ، وعلى إرادة تعبير الواقع الذى لا يرضيه ، وعلى التفاؤل باللحظة التالية ، والغد التالى ، والابتسام للوجود الذى يملك أن يلائم بين حياته وبينه ، والذى يستطيع أن يفيد منه ، وأن يؤثر فيه كما يتأثر به .

ولكم مرت بهذا الوجدان القومى لحظات يحس فيها باتساع أفقه ، فيغمره الإشراق ، ويملؤه الأمل ، ويدفعه إلى ما يشبه المعجزات . . ومن هذه اللحظات يكاد يتلاشى أنيه ، وينوب ألمه ، وتذهب عنه أناته ، وتأوهات ، ويتحول غناؤه الحزين إلى نشيد حماسى ، ولا يصبح غناءً فردياً ، يتناقله الآحاد المفرقون هنا وهناك ، وإنما يصبح ترديداً جماعياً

يعبر عن الوجدان الجماعى تعبيراً مباشراً. وإذا كان الإحجام عن التآزر ، وعدم الإقبال على الحياة ، ومحاولة التغلب على صعابها ، لا يساير الطبيعة المصرية الثابتة ، فإن الوجدان يحتفظ على الرغم من الظروف ، بفطرته الأصلية فى النزوع إلى التوحد ، والتنظيم ، والبناء ، والعمل المتواصل من سبيل الأجيال ، وليس صحيحاً ما قيل عن هذا الوجدان من إثارة الاستسلام والرضى الكامل ، بما يُفرض عليه من خارج أقطاره ، فالشعب المصرى أقدم شعب فى التاريخ ، وهو الذى نهض بأقدم ثورة فى التاريخ ، وأحدث ثورة فى التاريخ ، فأما الأولى التى كانت منذ آلاف السنين فى الدولة الفرعونية القديمة ، فلم يسجلها الثائرون المنتصرون ، وهم الشعب نفسه ، وإنما سجلها المهزومون ، وصوّروا وقعها عليهم ، وتأثيرها فيهم ، وأما الثانية فكانت التعبير الصادق عن فطرة البيئة المصرية ، والوجدان الشعبى المصرى ، انتقاماً للحياة من الواقفين فى سبيلها ، وانتصاراً للتاريخ الشعبى الصحيح الذى يُدرك الكيان الاجتماعى بأسره ، من سفحه إلى قمته . وبجميع لبناته التى يتألف منها ، وسوف تتعدل صور الملاحم الشعبية التى بقيت ، بتعدل وظائفها ، فى المجتمع الحديث ، وسوف تبرز خصائص الوطنية المصرية بمثلها المستخلصة من البيئة المادية ، والبيئة البشرية ، والمستوحاة من القومية العربية ، والفكرة الإسلامية وتحتفظ الفطرة المصرية بمقوماتها الثابتة ، ولم يعد هناك ما يعوق الوجدان الشعبى عن تحقيق شخصيته ، ولن يدفعه الكبت والخوف والحرمان ، إلى الوقوف من الحياة موقف المتفرج عليها ، المتنلبربها ، الساخر منها ، ولا موقف الحزين .

المتضرع الذى يجترأ ألمه ، ويقتات بدموعه ، وينتظر من خارج وجوده الغوث والإنقاذ .

ولقد آن الأوان لكى نعمل على جمع تراثنا الشعبى ، والنظر فى بواعثه وصوره ووظائفه . . نعم ان الأوان لكى نقوم بمساحة تفصيلية لثقافتنا القومية لكى نكون أكثر إحساساً بأنفسنا المفردة ، ونفسنا الجامعة ، وأن نذكر أن هذا الجمع والتصنيف ، والتحليل لا بد منه إلى جانب اكتشاف الجانب المادى من موطن شعبنا العريق ، وأن نذكر أيضاً أن هذا التراث الثقافى يتسم بالوحدة التى تتسم بها أمتنا ، وأنه كل متجانس ومتفاعل لا ينقسم بانقسام العصبية الصغيرة ، والأنظار الخاصة ، والطبقات الاجتماعية ، وهذا التراث الثقافى يندرج فيه الأثر المادى الشاخص ، والأثر المدون والأثر الدائر على الألسنة ، والأثر المحفوظ فى الصدور . ويوم يتم ذلك يكمل علمنا بوجودنا الشعبى ، ويتأكد فى نفوسنا وعقولنا ، أننا أبناء ماض واحد ، وحاضر واحد ، ومستقبل واحد وأن كل فرد منا ، يطوى فى نفسه تجربة الحياة منذ أحقاب وأحقاب ، وأنه صورة مصغرة من الوجدان العام ، وأن عمله لنفسه ، يحمل فى تضاعيفه عمله لقومه ، وأن نهوضه بالخدمة العامة فيه النفع الذى يعود على شخصه ، ولنترك وجدان الشعب لننظر فى وسيلة هذا الوجدان إلى الظهور والتماثل عبر الزمان وعبر المكان .

لغتنا القومية

ونحن كلما قرأنا القصص الشعبي القديم ، وهو القصصى الذى انحدر عن مكانه الاجتماعى ، وفقد وظيفته الإيجابية فى تفسير الحياة . ، وظواهر الكون ، وأصبح أدنى إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، ولم يعد يحتفل به غير الأطفال والدهماء ، واجهتنا تلك الأسماء والألفاظ التى تحمل فى مخارجها وحروفها قدرة سحرية عجيبة ، تقوم لقائلها بخوارق الفعال ، فتفتح لهم الأبواب الموصدة ، وتبنى لهم الدور الشاهقة ، وتحملهم عبر الجبال والبحار إلى حيث يعلمون أو لا يعلمون . وليس هناك ما يفسر قيمة هذه الجارحة الاجتماعية الكبرى أعظم من هاتيك القصص . والجارحة التى نعيها ، هى « اللغة » ومن الكلام المردّد أننا كائنات ناطقة وأنا نتميز عن غيرنا من الأحياء بالنطق ، فاللغة قوام إنسانيتنا وهى أكبر وسيلة نحقق بها شخصياتنا المفردة ، والجماعية على السواء ، وهى والفكر بأوسع معانيه شىء واحد ، بهما أصبح الإنسان إنساناً ، والمرء مهما جهله ، لا يستطيع التفكير المجرد عن اللغة ، أو بمعنى آخر ، إن المرء يفكر باللغة ، ولا يمكن أن تفصل الفكر عن اللغة بحال من الأحوال .

واللغة فوق هذا كله هى التى أعانت الإنسان على أن يكون اجتماعياً .. إنها ثمرة اجتماعية ، وسبب اجتماعه فى آن واحد ، فهى التى تصله بغيره آحاداً وقبيلًا ، وما من مجتمع متجانس إلا وكانت لغته الخاصة ، هى

العروة الوثقى بين عناصره وأفراده ، وضعف هذه اللغة يُشير بذاته إلى ضعف المجتمع الذى يصطنعها ، وإذا عجز مجتمع من المجتمعات عن الملازمة بينه وبين البيئة التى استقر فيها ، وبين الحياة حوله ، وأصابته الشيخوخة فإن لغته ، تشيخ هى الأخرى ، وكما يفنى هذا المجتمع فى غيره ، تفنى لغته فى لغة أخرى ، وإذا تحول عن بيئته الأولى إلى بيئة ثانية ، واستقرت فيها أجياله ، زمانا ، فإن لغته تأخذ من بيئته الجديدة خصائص جديدة ، وإن بقيت عروق من بيئته الأولى تستعمل إلى حين . وإذا نهض المجتمع وتكاثر عناصره واتسعت الرقعة التى يعيش فيها ، قويت لغته واتسعت وغلبت على ما كان قبلها . .

واللغة بهذا المفهوم ليست منطقاً صورياً يتوصل به فى ضبط جهاز التعقل ، ونقل الأفكار ، ولكنها أوسع من ذلك مدى بكثير ، وهى ليست مجرد المخارج والأصوات المحددة ، والكلمات والعبارات المحددة ، والمعانى والدلالات المحددة ، وإنما هى كل ما اصطلاح المجتمع عليه للإبانة عن وجدانه العام ، ووجدان أفراده ، فهى تنتظم إشارات أخرى ، وأمارات أخرى ، وتندمج فيها حركات تقوم بها الجوارح ، وتدخل فيها دلالات ألوان ، وأشياء وأصوات غير التى تصدر عن اللسان ، وقوامها إلى جانب التلفظ ، عادات ومراسيم واصطلاحات تعبر عن فعل الجماعة ، وفكر الجماعة ووجدان الجماعة فى مختلف الشئون .

ومع هذا كله فنحن نقتصر فى هذا المقام على جارحة اللسان الإنسانى ، وننظر فى علاقة هذه الجارحة بمجتمعنا الكبير ، ومجتمعاتنا الصغيرة ،

فلغتنا القومية — كما فهمها القدماء — هي لساننا القومى ، أو بتعبير آخر لساننا الجماعى . . إنها ليست لهجة خاصة تمتاز من غيرها بأنها لهجة الطبقات العليا ، وليست امتياز إقليم من أقاليم الوطن الكبير ، وليست تعصباً لبادية أو حاضرة أو قبيل ، ولكنها كل اللهجات التى يتلاغى بها المواطنون ، وأبناء عمومتهم فى الوطن العربى الكبير .

وليس ينبغى أن نحتكم فى هذه اللغة إلى معيار تاريخى ، فنجعل لها مثلاً إنسانياً ماضياً لا ينبغى أن نتجاوزه ، فاللغة مستمرة ومتواصلة باستمرار مجتمعتها وتواصل سيرته ، وليس يناقض طبيعة اللغة أكثر من شدتها إلى أسطورة « العصر الذهبى » ، أياً كان هذا العصر ، وأياً كانت الحياة الاجتماعية فيه ، ذلك لأن المجتمع فى لحظته الراهنة قد تطور وتعديل ، عما كان منذ قرون ، وصور الحياة قد اختلفت عما كانت فى ذلك العصر الذى يُنعت بالذهبى ، وليس ينبغى كذلك أن يحتكم فى اللغة القومية احتكاماً جغرافياً يجعل مثلها الأعلى فى إقليم دون سائر الأقاليم التى يعيش فيها المجتمع أياً كان هذا الإقليم ، ومن الخير أن نعرف هذه اللغة بفطرتها الاجتماعية ، وألا نشدها بوسيلة مصطنعة إلى فترة مضت ، أو إقليم جزئى محدود ، وأن نعينها على السير فى طريقها بأن نهض بمجتمعها فإنها لا تنفصل عنه ، وهو ما دام حياً فاعلاً ، لا يستطيع أن ينفصل عنها .

وكما أن للمجتمع علاقاته بالمجتمعات الأخرى ، يأخذ منها ويعطيها فكذلك اللغة تحكى هذه العلاقات بما تأخذه من المجتمعات الأخرى ، وبما تعطى هذه المجتمعات ، وليست هناك لغة لم تأخذ من غيرها ، ولم

تعط غيرها ، اللهم إلا تلك الجزر البشرية التي أريد لها أن تعيش في عزلة .
فهي وحدها التي تحتفظ بلغتها بلا تغير أو تبديل في صورها ودلالاتها .
ولغتنا القومية قد أعطت اللغات الأوروبية ، التي تبسط رقعتها على قارات
شاسعة كثيراً من الألفاظ الدالة على العلم والتجربة ، واستقرت هذه الألفاظ
وهي كثيرة في المعجم الحى لهذه اللغات . واحتفظ بعضها بصورته العربية .
وإن دون بحروف لاتينية . وتعديل بعضها الآخر . وبقيت فيه دلائل
على أصله العربي . وتغير باقيها تغيراً جعل من المتعذر حتى على المدارس
المتخصص أن يعرف أصلها العربي .

والمجتمع هو الذي يشكل لغته . ويوزعها على طبقاته وعناصره ،
ومن ثم تنتظم لغته لمجمعات إقليمية وطبقية ومهنية أيضاً ، وهذه اللهجات
تعيش ما عاش المجتمع بصورته . ويبقى بعضها . ويفنى بعضها الآخر ،
ويتداخل بعضها في بعض . ويأخذ بعضها من بعض . وإلى جانب هذه
اللهجات تبرز لهجة معينة ، وتصبح اللهجة التي تجمع الأقاليم ،
والطبقات ، والمهن ، وهذه اللهجة هي العروة الوثقى في المجتمع كله ،
وهي شريانه الحيوى . تقوى بقوة نزوعه إلى الوحدة وهي مرنة . تأخذ من
اللغات الأخرى وتعطيها ، وتحافظ في الوقت نفسه على قوامها المتميز ،
وتدافع عن وجودها ، مدافعة مجتمعتها عن وجوده ! !

ولو عرفت هذه الحقائق على وجهها ، وعرف معها قوة النزوع
إلى الاتحاد القومى خف ذلك الإحساس الذى يستشعره المثقفون بمشكلة
اللغة ، فقد واجهوا أولاً : اختلاف اللهجات في الوطن العربى الكبير ،

وهي لهجات تتقارب وتتباعده بتقارب الوحدات الإقليمية وتباعدها ،
وواجهوا ثانيا : ذلك الاختلاف الظاهر بين اللهجة الفصحى واللهجات
التي تُسمى بالعامية ، وهو اختلاف يجعل الواحد منهم يضطر إلى أن يفكر
بلهجة ، ويكتب بلهجة أخرى ، وواجهوا ثالثاً : توقف المعجم اللغوي منذ
قرون ، وعدم زيادته على الرغم من تواصل الحياة الاجتماعية الحضارية
فلما التقى العالم العربي بالعالم الغربي ، وشهد تطور العلوم ، ورقى الصناعة ،
وجد نفسه عاجزاً عن حكايتها بلغته ، ووقع في حيرة بين النحت والتعريب
والنقل .

وليس نزوع المجتمع العربي الكبير إلى الوحدة ، عملاً سياسياً بالمعنى
القديم للفظ « السياسة » ، وليس استجابة لوجدان القومية العربية فحسب ،
ولكنه توجيه الحياة في هذا العصر بعد أن ارتفعت الحواجز الجغرافية بفعل
وسائل الاتصال الحديثة التي غيرت معدل المسافة بين الأقطار ، وقربت
الأبعاد إلى مدى كان يُعد في القرن الماضي فقط من الخوارق ، وأصبح
الآن من اليسير أن يُفطر المرء في قطر ، وأن يتناول غداءه في قطر آخر ،
وعشاءه في قطر ثالث ، ويسرت الطباعة والصحافة التقارب بين العقول
والقلوب في الجماعة الناطقة بلغة واحدة مهما اتسعت أقطارها ، وبفضلهما
تحولت الثقافة من امتياز لا يحصل عليه إلا الأغنياء الواجدون ، إلى
سبب من أسباب الديمقراطية يستطيع أن يحصلها الكثيرون بالتعليم ،
ثم دخل إلى الميدان ، ذلك العامل اللغوي الخطير الذي يكاد يسوى بين
الناس في المعرفة والذوق الفني ، ونعني به الراديو الذي يوحد الألسنة ،

ويطبعها على النموذج الذى اصططلحت عليه الجماعة وارتضته ، وهذا الراديو جعل لكل جماعة جارحتها الناطقة على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز ، وكما أن لكل فرد لسانه الذى ينطق به ، فإن لكل جماعة لسانها الذى تنطق به ، وهو جهاز إذاعتها ، فالتقارب بين اللهجات إذاً ، واقع لا شك فيه ، وهو يحدث بنظام وقوة وسرعة ، وكل ما فى الأمر أن نُعين هذا التقارب على أن يبلغ غايته ، وأن نسايرَه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وألا نقاومه بحال من الأحوال ، وإن استطعنا أن نشحذ حركته ، ونحث خطاه بعجلة متزايدة السرعة ، كان التوحد بين اللهجات أمراً قريباً ، وأقرب مما يتصور المتفائلون أنفسهم .

ويكبر الجدل بين المثقفين حول الاختلاف بين لهجة الحديث ، ولهجة الكتابة ، وكان الإحساس بهذه المشكلة حاداً فى الجيل الماضى عندما بدأت صور فنية جديدة فى الأدب العربى كالدرامة والقصة ، وحاجتهما إلى الحوار ، ومدى حكاية هذا الحوار للواقع ، وفطن بعضهم إلى الحقيقة التى سقناها ، وهى أن اللهجات التى تنعت بالعامية ، لهجات عربية ، وليس ينبغى أن تقاس فى نحوها وصرفها ، على لهجة أخرى ، وأدت الدراسة ببعضهم الآخر إلى أن يستخلص من المعجم العربى القديم كثيراً من الألفاظ والعبارات التى تدور على ألسنة الناس فى أقاليم مختلفة ، ومن ثم كان التقارب بين اللهجة الفصحى وبين لهجة الحديث ، وأصبح من اليسير على الأدباء أن يصلوا إلى لغة متوسطة يفهمها المتعلمون وغير المتعلمين على السواء ، وتحتفظ فى الوقت نفسه بخصائص اللهجة الفصحى ،

فى الإعراب والاشتقاق والتصريف ، ولن يمضى وقت طويل حتى تُصقل اللهجات المستعملة فى الحديث ، وتتقارب وترتقى إلى مجال التعبير الفنى ويرأها أصحاب المواهب خليقة الاعتبار ، وتعين السينما ، والراديو ، كما تعين الصحافة من ناحية أخرى على بلوغ هذا الهدف القريب .

ولكننا نرى لزماً علينا قبل أن ننتقل إلى المظهر الثالث من مظاهر ما يسمى بالمشكلة اللغوية ، أن نقرر حقيقة تغيب أحياناً على الدارسين ، وهى أن الثقافة ليس معناها التراث المدون فى الكتب فقط ، ولكنها إلى جانب هذا ، وفوق هذا ، مجموعة من الصور والتعابير والعلاقات والتجارب والخبرات غير المحفوظة فى الطروس ، وإنما يتلقاها الأفراد بالمحاكاة والتلقين ، والدربة ، وانقسام المجتمع إلى مثقفين وغير مثقفين انقسام غير صحيح ، ولا وجود له لأن جميع الأفراد بهذا المفهوم الاجتماعى مثقفون تتفاوت أنواع ثقافتهم ودرجاتها . وانقسام المجتمع إلى أميين وغير أميين ، انقسام لا يقوم على مجرد العلم بالقراءة والكتابة ، وإنما يقوم على ما يكسبه هذا العلم أصحابه من قدرات وخبرات وما يدفعهم إليه من مقام ملحوظ فى مجتمعهم ، ولذلك كان التراث الثقافى القومى هو تراث الجميع ، متعلمين للقراءة والكتابة ، ومثقفين من الحياة بالحياة .

وهذه الحقيقة البارزة ، تدفعنا إلى إمعان النظر فى مهمة معلم اللغة الذى يُدفع الصبى إليه فى العام السابع من عمره وربما قبل ذلك ، فإن هذا المعلم ينبغى ألا يسلخه فجأة من بيئته ومجتمعه ، وينقله نقلاً ، إلى لهجة جديدة عليه ، تجعله يحس بالازدواج اللغوى حتى يصبح مثله كمثل

الأجنبي يتحدث في بيته بلغة وفي الطريق بلغة أخرى ، ويستقر في نفس الصبي أن اللهجتين تختلفان نوعاً ، أو درجة ولا يحس بما بينهما من تقارب شديد ويستمر يعاني « الإثنسينية » في شخصيته وفي وجدانه فهو عندما يتكلم يختلف عنه وهو يكتب . وعلى المعلم أيضاً أن يدرك ويفيد من تقارب اللهجتين ، وأن ينأى بجانبه عن النظر المنطقي العقلي إلى اللغة ، وأن يخلفها من « اللامساس » الذي ضحى بها ، ويرثها من التقنين والتعقيد ، الذي كان يشل حركتها ، والذي أقام علاقاتها وتصاريدها على فروض لم يكن لها وجود في الواقع اللغوي ، وكلما قربت الكتابة من الحديث كانت أقوى تعبيراً عن وجدان الفرد ، ووجدان الجماعة ، وأفعل في التقريب بين مختلف اللهجات ، حتى يبلغ المجتمع غايته المرجوة في تمام التوحد اللغوي .

وأعجب المشكلات التي واجهها المجتمع العربي بعامه ، والمجتمع المصري بخاصة ، إنما هي تعطل المعجم اللغوي عن القيام بوظيفته الحيوية ، فإن هذا المعجم ليس كتاباً جامعاً للمفردات والاشتقاقات والدلالات ، صنفه فرد مجتهد ، ولكنه الرصيد اللغوي للمجتمع كله . ولما كان المجتمع حياً طويل العمر ، متشعب المسالك ، متداخل العلاقات كان هذا الرصيد ضخماً ، معقداً ، متشعباً ، ومتداخلاً ، وهو كالعملة التي يتداولها الناس في الحصول على الأشياء والخدمات ، تتغير صورها ، وتتعدل قيمتها ، ويضاف إليها ، ويسقط منها . . يضاف إليها ما يحس المجتمع أنه محتاج إليه ، ويسقط منها ما لم تعد له فائدة في حياته ، ولذلك كان من الضروري ، أن يكون لكل عصر معجمه الحي الذي يضم رصيده

اللغوى ، ولكننا فتحنا أعيننا فلم نجد لنا هذا المعجم الحى ، وإنما وجدنا معاجم قديمة ، ضمت رصيذاً ضرب فى إقليم بذاته ، وفى عصر بذاته ، وأعيدت هذه المعادن القديمة إلى الاستعمال ، ونحن نعرف بأن كثيراً مما ادّخرته ، لا يزال حياً فعلاً ، ولكننا نعرف كذلك بأن صوراً لفظية تعدلت وتغيرت وصوراً أخرى أضيفت أو انقرضت ، كما أن الدلالات أصابها التطور فيما أصاب ، ومن العجيب أن يستعمل المتفنون المحدثون من السفراء والناشرين هذه المعاجم القديمة بصورها ودلالاتها القديمة ، وأن النقاد والشارحين للأدب الحديث يحتكمون فى فهم النصوص المعاصرة إلى تلك المعاجم ذات القيمة التاريخية دون أن يدخلوا فى حسابهم العمر الطويل الذى انقضى منذُ جمعت ، وأخطر من هذا وذاك ، ما أحسته الحياة ، من فقر لغوى ، وهى تواجه العلوم الحديثة ، والفنون الحديثة ، والمخترعات الحديثة ، ولا تزال جامعاتنا تدرس بعض موادها باللغات الأجنبية ، ويقوم بذلك مواطنون مصريون من أولاد العرب ! وهم معذورون . وينهض المجمع اللغوى بالعبء ويمرّ بتجارب كثيرة بين تقنين ونحت ونقل ، وينشط المعلمون والمترجمون فيضيفوا إلى المعجم الحى المئات من المصطلحات والتعابير ، ولكنها جهود مهما عظمت يُعوزها التوجيه والتنسيق ، ونحن مطمئنون إلى أن المجتمع فى فترته المجيدة هذه ، سيخلص المعجم العربى الحى من الجمود ، ومن الارتجال ، وسيوحدُ بين العاملين فى المجال اللغوى لكى تساير اللغة نهضة المجتمع ، ولكى تُصبح كما كانت فى الماضى وكما يجب أن تكون إلى شخصيته تحقيق وسيلة العامة ، وشخصيات أفراده .

عادات وتقاليـد

. . وإذا نحن تأملنا في أنفسنا أفراداً وجماعات . ، ونظرنا إلى ما نقوم به طوال النهار ، وشطراً من الليل ، فإننا نجد أن أكثر هذه الفعال ، اكتسبناه عن الجماعة بالمحاكاة والتلقين وما إليها ، وقليلاً ما نفكر في هذه الفعال . . من أين أتت ؟ .. ما هي بواعثها ؟ .. ما غاياتها ؟ . . ما نفعها؟ . . والواقع أننا نصدر في حياتنا عن نموذج عام ، وأتينا نخضع لعادات وتقاليـد رتبها المجتمع ، وحافظ عليها ، واعتبرها جزءاً لا يتجزأ عن قوامه ، ومن علاقاته ، وهي تقوم فيه وله بوظائف حيوية فعالة ، وإن كنا لا نعي هذه الوظائف في كثير من الأحيان . وهذه العادات ، وتلك التقاليد هي إطار ميراثنا الثقافي الجماعي ، وهي تؤلف بنوداً أقوى القوانين ، وأشدّها إلزاماً للخاضعين له ، وهي بمثابة قانون غير مكتوب ، لأن المجتمع يراها أقوى من أن تحتاج إلى تسجيل ، ولأن أفراد المجتمع ، يعرفونها في أنفسهم ، ويلتزمون بها في سلوكهم دون أن يستشعروا ضرورة تدوينها . .

وواجهت المجتمع المصري في مطلع العصر الحديث ، مشكلة جعلته يتوقف ويتحير ، ويتساءل عن هذه العادات والتقاليد فقد اتصل بالحضارة الغربية ، ووجد فيها عادات أخرى وتقاليـد أخرى ، تختلف في بواعثها وصورها ووظائفها عما ألفه في أطوائه ، وتطور المجتمع المصري بفعل هذا الاتصال الحضري ، وما استحدثته من صراع ، ومقاومة ، وتسرب ، وكان

لزماً عليه أن يعدّل في بعض عاداته وتقاليده، بحيث تلائم تطوره، وانقسمت الطبقات المفكرة ، إلى قسمين ، أحدهما يتشبّث بالواقع المألوف ، وثانيهما يدعو إلى الأخذ بجملة أو إلى الانتخاب من العادات الجديدة غير المألوفة ، والتقاليد الوافدة غير المتمثلة ما يلائم نزوع المجتمع إلى التقدم . . وسار المجتمع في طريقه فأخذ من القديم والحديث ما ساغه ذوقه ، وأحس بنفعه العام له ، وكانت طبقات المجتمع تتفاوت في درجات المحافظة والأخذ جميعاً ، وتغيرت أنماط وأزياء وطقوس ومراسيم ، وبقي الحديد على سطح الكيان الاجتماعي ولم ينفذ منه إلا قليلاً ، وظل القديم الصالح واضحاً يعمل عمله ، وكمن ما تصور البعض أنه غير صالح في أطوار المجتمع ، ولم تنعدم وظيفته انعداماً تاماً ، ومن هنا تحول التفاعل بين التّليد والطّارف إلى ما يشبه الصراع النفسي في أطواء الوجدان الشعبي ، وفي مكنون الوجدان الفردي معاً ، وصور الأدب الفصيح والشعبي جميعاً هذا الصراع ، وشغل العلماء به في كل مجال يرصدونه ، ويصنّفون عناصره ، ويدعو بعضهم إلى رأى معين فيه ، ولو أن الجميع ، التفتوا إلى وظائف العادات والتقاليد ، لأعانوا التطور ، وخففوا عن الوجدان عبء الصراع ، وقللوا من ضحاياه ، وشاركوا مشاركة أجدى في توجيه الحياة . . ولسنا نريد في هذا الفصل أن نعرض للعادات والتقاليد ذوات الوظائف المعروفة الواضحة ، ولكننا نعرض لما توهمه الدارسون والمثقفون ، من عادات ضارة ، وتقالييد غير نافعة ، وهي التي كُنت في وجدان الشعب ، أو أعذرت إلى سفع كيانه الاجتماعي ، وبقيت في طبقاته الدنيا ، تمارس جهراً أو سراً ،

وتقاوم من سائر الطبقات ، ولن نفهم فاعليتها إلا إذا أدركنا أنها ميراث قديم متوغل في القدم ، لعلها تعود إلى ما قبل الحضارة ، وبقاؤها إلى اليوم ، وإن كنت أو انحدرت يدل في ذاته على بقاء وظيفتها الحيوية ، وإن انحسرت هذه الوظيفة عن معظم الكيان الاجتماعي حتى استقرت في موضعها على سفحه وقاعدته ، وهي تشبه إلى حد بعيد ما يمارس فيما يسمى بالجماعات المتخلفة في العالم ، فالقبيلة التي تقوم برقصة الحرب - مثلاً - قبل التوجه لقتال جيرانها ، إنما تستثير الخوافز على القتال أو تشحذ العزائم عليه ، والمحاربون يرقصون لنقل الشعور بالعزة ، ولا نقول التعبير عنه . والسحر المتعدد المعقد الذي يحيط بالفلاحة في الجماعة الزراعية يشحذ عواطف هذه الجماعة نحو حيوانها ونباتها ومياهها .

ولكننا نلاحظ أن هذه العادات لا تفرغ شحنة هذه الانفعالات لأن الصالح العام للجماعة يتطلب الإبقاء عليها ، وتقويتها والانتفاع بها . وهي لذلك تتركز وتتلور ثم تتحول إلى عوامل مؤثرة في الحياة ، موجهة لها ، ونحن نرى أن هذه الاستثارة سواء وجهت إلى القائمين بها أو إلى غيرهم ، أو كان المقصود بها نافعاً لهم أو ضاراً بعدوهم ، فهي الغاية الوحيدة التي تتغياها هذه العادات وتلك التقاليد إذا مورست بحذق ، ولذلك كانت وظيفتها الأساسية هي شحذ انفعالات بعينها ، وتقويتها وتكثيرها وهي مشاعر ضرورية لحياة الجماعة . .

إذا أدركنا ذلك عرفنا قيمة العادات والتقاليد في مجتمعنا وتخففنا من وصفها بالخير أو السوء . . بالتقدم أو الانتكاس . بالرقى أو الانحطاط ،

وكانت مهمتنا الأساسية أن نعرف وظيفتها النفسية الإيجابية في الوجدان الشعبي ، ونجد مصداق هذا في كثير من الجهود التي نقوم بها في حياتنا اليومية ، وتسلك في مجال العادات والتقاليد ، وهي لا تحقق رغباتنا بمجرد القيام بها . وإنما ترفع من روحنا المعنوي ، وتربطنا بمجتمعنا ، وتعطينا دائماً النموذج العام الذي نحاكه في تصرفاتنا .

وهذه الحفلات التقليدية الكثيرة ، التي نقوم بها أفراداً وأمة في مناسبات مختلفة ، وفي فترات معينة ، وفي تواريخ ثابتة ، تقدم ذلك النموذج ، وتقوم بوظيفة الشحذ لهم الأفراد والجماعات على القيام بعمل تريده الجماعة ، أو تقره الجماعة ، وتفيد منه ، فالآداب التي تقام بين حين وحين والتي تصحبها مراسيم معينة وأزياء معينة وإشارات معينة ، نماذج عامه يصورها المجتمع لجميع أفرادهم وجميع عناصره ، والمراسيم والأزياء تدل في ذاتها على اهتمام المجتمع بهذه الآداب ، ويصور كل واحد منها علاقة معينة من العلاقات الاجتماعية . والمضيف والضيف نموذجان اجتماعيان في هذه الآداب قبل أن يكونا فردين اثنين ومؤاكلة كل واحد منهما للآخر في هذا المحيط العلني ، وبهذا التقدير العام . وإشهاد الآخرين عليه معناه توثيق أصرة لم تكن موجودة ، ويتطلب المجتمع وجودها أو تقوية علاقة رثت أو خفت لسبب من الأسباب ، واقتسام الرغبة وأكل « العيش والملح » وجرح الأصابع ولعق الدم وعقد أطراف الأزياء ، كل أولئك روابط يترع المجتمع إلى تحقيقها في كيانه وفي عناصره وفي أفرادها .

وحفلات الزواج من أوضح هذه التقاليد فإنها لا تحتفل بالعاطفة

الخاصة بين رجل وامرأة أو فتاة ، وإنما تحتفل بالرباط المقدس في نظر الجماعة ، وهو الرباط الزوجي . وعلاقة الزواج تتطلب من المجتمع أن يحتفل بها وأن يقرها وأن يشهد عليها وأن يسجلها وأن يعترف بشماتها وبما تفرضه على كل طرف من أطرافها . وما تشهده في هذه الحفلات من موسيقى وغناء لا يدل على فرحة المجتمع فحسب ، ولكنه يدل أيضاً على الإشهاد العلني الذي يعد ركناً أساسياً من أركان الزواج واتخاذ مكان خاص وزى خاص للعروسين وتركيز الأضواء عليهما وإحاطتهما بالورود ، يحولهما من فردين اثنين لهما شخصيتاهما المعنيتان إلى نموذجين عامين . ومن أجل ذلك نراهما يتحولان إلى صور قديمة في خلد المجتمع ، صور الشعار والرمز : فيها من آثار مشيخة القبيلة ورئاسة الجماعة آثار لا يخطئها التأمل . ووضع كف « العريس » في كف العروس عند الغريين ، أو وضع كف « العريس » في كف وكيل العروس عند المسلمين يحكي الآصرة التي يقدسها المجتمع والتي لا يكاد يقدس آصرة أعظم منها ، ويصور أمل المجتمع في بقائها وثيقة عزيزة لأن في ذلك الاحتفاظ بالكيان الاجتماعي كله وأزياء المدعوين وأزهارهم وهداياهم . . وموائد الطعام وألوانه وصحافه . إنما هي أجزاء من الصورة العامة ، أو بتعبير أدق ، إنما هي إطار للنموذج العام الذي يقدمه المجتمع في هذه المناسبة المقدسة عنده .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضي في تفسير عادات كثيرة وتقاليد كثيرة على أساس نفس اجتماعي ، فتشيع الجنازات وإقامة المآتم تعبر عن حزن المجتمع على فقد فرد من أفرادهِ ، لا باعتباره واحداً ، ولكن

باعتباره عنصرا فعالا مفيدا لمجتمعه ، تتعلق بحياته حيوات غيره وآمال غيره . والحناسة في ذاتها فوق هذا التعبير عن الحشوع والحزن تجسم عواطف اجتماعية وتشحذهم الأفراد على احتمال المصائب وتصور لهم بطريقة تمثيلية الذهاب به والعود بدونه ومواجهة الحياة بعده وهكذا . . وفي الميلاد والختان وفي الاحتفال السنوي يبلوغ مرحلة معينة من مراحل العمر ، معنى اجتماعي وتعبير جماعي يدلان على علاقة الأفراد بعضهم ببعض في الإطار العام وفق النموذج العام ، ولها كذلك وظائف تتطلبها الحياة من رفع الروح المعنوية وشحذ الهمة وبعث انفعال خاص تريده الجماعة في طبقاتها ومناصرها ؛ وهذا الانفعال لا يستثار لكي تفرغ شحنته بل يستثار ويسرب في مسالك النفس ليدفع الآحاد إلى القيام بعمل تراه الجماعة مفيدا لها يعينها على الاستمرار في احتمال العبء ، أو يضع على كواهلها مسئولية معينة أو يفرض عليها ارتباطا معيناً أو يلزمها بسلوك معين . . وكل ذلك في نسق مرتب معروف مستقر يكون العرف الاجتماعي الذي يأخذ الفرد والمجموع باتباعه ويقاوم الخروج عليه ويعاقب ، ويكاد يخرج من الزمرة الاجتماعية من يضيق به أو من يقاومه أو ينكره..

فالعادات والتقاليد بهذه الصورة لها غاياتها التي يحددها المجتمع ولها وظائفها التي يريدتها المجتمع وقد رأينا فاعليتها فيما يتصل بعلاقات العناصر والأفراد ، والجماعة كلها عادات وتقاليد تحكى تجانسها وتماسكها ونزوعها الدائم إلى التوحيد ، وهي التي نستطيع أن نطلق عليها صفة « القومية » ، فاستعراض الجيش - مثلا - في مناسبات عامة معينة ليس حفلاً يتغني

مجرد السرور به والفرجة عليه ، ولكنه تعبير تريد الجماعة أن تؤكد في نفوس أفرادها وعناصرها ، فالجيش لم يعد مجموعة من الأفراد الأجانب الذين يبيعون خبرتهم المجردة من العاطفة القومية لكل من يطلبها ، كما كان الشأن في بعض الحضارات القديمة ، ولم يعد حفنة من الإنكشارية الذين يختطفون من ديارهم ، وينشأون في ديار أخرى بلا ولاء موروث أو عاطفة عائلية ترتقى وتتسع إلى أن تصبح عاطفة وطنية أو قومية ، ولم يعد حفنة من العبيد المماليك يستطيعون على الجماعة بالدربة المتخصصة ، والسلاح المحتكر والحرأة الوقاح ، ولكن الجيش الوطنى أو القومى ، جارحة اجتماعية تجسم إرادة المجتمع أن يدفع عن ذاته وعن حماه . ومن أجل ذلك كان استعراضه تقليدا قومياً لأنه فوق قيامه بالتدريب أو شحذ همّة أفرادهِ ، يقوم برفع الروح المعنوية في الكيان الاجتماعى بأسره ، ويبعث غرائز الفتوة والكفاح وهى الغرائز التى تكمن في وقت السلم وتخف سورتها بطول الركون إلى الطمأنينة ، واستقرار أسباب الحياة في الوطن . وليس الاستعراض عبارة عن عرض كامل للجيش ، بجميع فرق وآلاته ولكنه انتخاب يمثل ما تتطلبه الجماعة في نفسها وفي نفسه . . ومن أجل هذا أيضاً حرصت الأمم على تثبيت المناسبات التى يقام فيها العرض العسكرى . وزاوجت بين مواسم عامة معينة وبين الوفاء بهذا العرض . كما أنه يكون عند التأهب لمعركة أو عند النصر في حرب وهو في الأولى تعبئة نفسية عامة وفي الثانية إشباع لعواطف الرضى بقدرة المجتمع على حماية نفسه والتغلب على عدوه .

وإقبال الكثرة على مشاهدة الحفلات الرياضية الكبيرة ليس مناسبة يشعرون فيها هواياتهم فقط ولكنه شعيرة اجتماعية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فالمباريات الدولية والإقليمية ، والإعلان عن مواعيدها واتخاذ شارات معينة فيها وأعلام خاصة تصاحبها ، والأزياء الخاصة التي يرتديها اللاعبون . . كل هذا جهد قومي . فاللاعبون ينتخبون بعد اختبار ودربة وشهرة ، لا لكي يرضوا في أنفسهم غريزة الظهور فحسب ولكن لكي يصبحوا نماذج جماعية تمثل أممهم وأوطانهم وأقاليمهم ، والمجتمع يحوطهم بعواطفه وتقديره وتشجيعه ، وتعترف الهيئة الاجتماعية بمقامهم وتنتدب بعض القوامين على الدولة لحضور مبارياتهم وتوزيع الجوائز عليهم . . والتقليد الرياضي نموذج تؤثره الجماعة وتدعو مختلف العناصر والأفراد إلى محاكاته والأخذ به واستثارة غرائز الكفاح في النظارة وفي المتبعين لأخبار المباريات أو المستمعين إليها في الراديو ، وظيفة إيجابية من وظائف الرياضة . . والتشجيع في أثناء المباراة لتأكيد النصر أو لتشجيع المتخلف . وظيفة أخرى من وظائفها ، لأنها بعد ذلك ترفع الروح المعنوى وتدفع إلى الصبر والاحتمال وتؤكد الأمل وتباعد اليأس . . وأهم من هذا كله وأدخل في التقليد الرياضي مصافحة المتبارين بعد النتيجة تصويراً للتسامح ، وإبعاداً لأثر الهزيمة ، وتخفيفاً من وقع الفشل ، وتوثيقاً للأواصر الإنسانية كما يؤثرها المجتمع الذي يحتفل بالرياضة ، ولا يراها مضيعة وقت أو وسيلة فرجة أو مناسبة متعة وسرور .

ولكل مجتمع صغير ينتظمه المجتمع الكبير عاداته وتقاليده أيضاً ،

بعضها نماذج اقتبسها عن الإطار العام وبعضها أنشأه بنفسه ، وهى وإن اختلفت فى صورها إلا أنها تلتقى فى حوافزها ووظائفها وغاياتها ، فهى جميعاً نماذج يجسمها المجتمع الصغير لكى يسير على غرارها ، أفراده وطبقاته وعناصره ، وهى جميعاً تقوم بخلق علاقة أو تقوية آصرة أو تأكيد رابطة تعين على بقاء المجتمع متآزر الوحدات ، متماسك الأجزاء ، والاحتفال بالموالد فى أحياء بعينها وعشائر بعينها ، وأقاليم بعينها ، من تقاليد هذه المجتمعات الخاصة وعاداتها ، فهى تذكر فضيلة مجسمة يؤثرها المجتمع فى صاحب المولد ، أو تذكر علاقة مقدسة يمجّلها المجتمع فى صاحب المولد ، أو تذكر قدرة معينة يجب المجتمع أن تظل له أو أن توجد فيه . . وكل المراسيم التى تصاحب هذه الموالد ، تصور العلاقات المطلوبة والوظائف الفعالة ، بيد أن بعض هذه المراسيم يشير إلى وظائف قديمة استقدمت إلى هذه المناسبة ، وتسربت إليها من عصر قديم ، فاختلطت ببقايا سحر ، وتحول هذا السحر الذى فقد مدلوله عند النزاعين إلى النفع من أى طريق إلى شعوذة ، وبقي الاستهواء النفسى يصاحب هذه الفعال عند الدهماء . . وصاحب المولد فى الحى أو العشيرة أو الإقليم فوق هذا كله شعار المجتمع الصغير أو الكبير الذى يحتفل به . . والاحتفال بالمولد فى هذه الناحية مناسبة جماعية منتظمة ، تقوى فيها العلاقات أو تتجدد لا بين أفراد المجتمع فحسب ولكن بينه وبين المجتمعات الأخرى التى تتجاوره أو تصهر إليه أو تتعامل معه . ومن ثم كانت الموالد ، وينبغى أن تكون ، مناسبات أخوة وتعامل وتجارة !

ليس يفوتنا ، ونحن نتحدث عن العادات والتقاليد أنها سمة أساسية من سمات مجتمعنا وكل مجتمع آخر ، وهى عندنا بخوافزها وصورها ووظائفها كما هى عند غيرنا ، وكل ما فى الأمر اختلاف شكلى كاختلاف لغة عن لغة وزى عن زى ، واصطلاح عن اصطلاح ، وما من مجتمع يزعم أنه يعيش بلا عادات وبلا تقاليد ، وهو لو فعل لأنكر وجوده لأنه يقوم بهذه المراسيم ولا يستطيع أن يستغنى عنها بحال من الأحوال . وإنكارها جملة معناه إنكار الروابط الاجتماعية ، والوظائف الجماعية ، ومسايرة المجتمع لهذا الإنكار معناها ضعفه أو شيخوخته أو عجزه عن الملاءمة بينه وبين الحياة . بيد أن هذا لا يمكن أن ينسبنا فعل التطور فى المجتمع وتأثيره بالثانى فى عاداته وتقاليده ومن ثم كان لازماً على المجتمع القوى أن يقوم بعملين أساسيين : أولهما ، المحافظة على العادات والتقاليد ذوات الوظائف الإيجابية التى تنزع إلى النفع العام والتى تستهدف تماسك الجماعة ونزوعها الفطرى إلى الوحدة . وهذا النزوع فى مجتمعنا المصرى أصل من الأصول التى تفرضها الشخصية المصرية فرضاً ، وتدفع إليها البيئة المصرية دفعا . وثانى العاملين ، أن يعدل المجتمع فى وعى وأناة وإدراك كامل لمقتضيات التطور وغاياته من صور العادات والتقاليد التى ضعفت وظائفها أو انقرضت ، والتى كمنت فى أطواء الوجدان الشعبى ، تخليصاً لهذا الوجدان من الصراع النفسى فى الفرد وفى الجماعة ، وهو الصراع الذى يبدد القوى ويضعف الهمة ويفكك الأواصر ويكاد يطمس الهدف المنشود . والمجتمع فى هذين العاملين مطالب بوساطة عقوله المفكرة ، وعواطفه

المعبرة ، وإرادته المدبرة أن يبرئ العادات والتقاليد مما تسرب في تضاعيفها من السحر ، ومن الشعوذة ، ومن بقايا الوثنية وأن يخلصها من الاستئانة إليها والاستهواء المضلل بها ، فإن هذه الاستئانة وذلك الاستهواء كثيراً ما يدفعان الدهماء إلى الاعتقاد بفقدان العلاقة بين الرغبة وبين العمل ، حتى أنهم يتصورون أن رغباتهم تتحقق بمجرد السحر والتوسل وغيرهما ، مع أن العادات الصالحة والتقاليد الصالحة إنما تشحذ الهمة عند الرغبة ، وترفع الروح المعنوى عند النهوض بتبعة من التبعات ، وتعين بذلك الأفراد والجماعات على القيام بأعمال تحقق رغباتهم وتدفع عنهم عادية اليأس ، وتشجعهم عند الإخفاق ، وتجدد عزيمتهم على معاودة العمل . .

ومن التقاليد التي فقدت وظيفتها ما كان منها متصلاً بالملوكية الطاغية ، والإقطاعية الباغية ، ومراسيمها التي كانت تدفع المجتمع إلى أن ينكر الأفراد وجودهم في سبيل وجود فرد واحد ، وقد لا يكون من أرومة المجتمع نفسه ، أو حفنة من الأفراد الواجدة المحتكرة للخير . والمتأمل في صور هذه المراسيم يجدها تصور « النموذج العام » خضوعاً كاملاً ، واستسلاماً تاماً لذلك الفرد الذى مكنته تلك المراسيم من التخيل لنفسه باستبعاد أفراد المجتمع واستغلال جهودهم ، وامتلاك وطنهم ، وهذه الصور تمثل بما يشبه المطابقة الكلية الولاء وحركات الخضوع بالخطوات المتخاذلة ، والانحناءات المتكررة ، وتقييل الأرض وأطراف الرداء واليد ووضع الكف على الكف رمزا للامتثال ، وهى تنتظم فى الوقت نفسه ألقاباً انقرضت دلالاتها ، وصيغاً لا تلائم كرامة الإنسان وعزة الجماعة . وأسماء بلا معنى وأزياء مزركشة

ومذهبة وأدوات أثرية وما إلى هذا بسبيل . . على المجتمع الذى حقق وجوده وعرف نفسه الجامعة أن يظهر وجدانه من أمثال هذه العادات والتقاليد التى فقدت وظيفتها ، أو بعبارة أصح التى كانت لها وظائف مفتعلة مصطنعة لا تلائم فطرة المجتمع ، ولا بيئة المجتمع وعليه أن يتخلص من الرواسب التى كانت تفلّ إرادته وتكبت رغبته وتجعله يخاف حتى من الوهم ! ! عليه أن ينفذ عن كيانه شوائب الخرافة ، وأن يبدد عناصر الجنوح إلى الشعوذة وأن يبطل السحر المقتعل ، وأن ينحل فى مكان هذا كله مراسيم جديدة تقف إلى جانب عاداته الصحيحة وتقاليده ذات الوظيفة الفعالة وتقدم له المثل الذى ينشد ، والنموذج الاجتماعى الذى يصبو إليه تحقيقاً لنزوعه الأصيل إلى القوة والوحدة والمنعة . . .

اللبنة الأولى

.. والكيان الاجتماعى بعناصره وطبقاته وأفراده كالجسم الحى يتألف من خلايا متجانسة متماثلة ، وهذه الخلايا تقوم منه مقام اللبنة التى تؤلف بناء معقداً كبيراً شاهقاً . واللبنة الأولى لعراقها وقيام المجتمع بها هى الأسرة ، فالمجتمع ، أيّاً كانت صورته وأيّاً كانت مرحلته من التطور وأيّاً كانت ثقافته إنما يقوم بالأسرة ، فهو فى حقيقته وجوهره عبارة عن أسر تتألف من أبناء وبنين ، وبين هذه الأسر وشائج رحم ، وروابط صهر ، وعلاقات تعامل ، وهى جميعاً تستشعر إلى جانب العاطفة الأسرية عاطفية قومية أو وطنية تجمع الطبقات والهيئات والعناصر كلها فى وحدة شعورية متبلورة هى الولاء للقوم أو الشعب أو الأمة أو الوطن . . . ولعل من أمتع المعضلات التى حاول العقل البشرى أن يعالجها أيلم طغى المنطق الشكلى على غيره من ألوان الفكر . . . هل وُجدت البيضة أولاً أم الدجاجة ؟ . . . ولعل هذا العقل فى جهاده لمعرفة العلة الأولى قد تتبع حلقات الكائنات والموجودات واحدة فواحدة . فوجد أنه ينتهى آخر الأمر من حيث بدأ ، فالدجاجة من البيضة ما فى ذلك شك . . . والبيضة من الدجاجة ما فى ذلك شك أيضاً ولكن أيهما أسبق فى الوجود الأول ! ! . . . وكذلك يعن لأصحاب علم الاجتماع أن يتساءلوا أحياناً : أنشأت الأسرة من الزواج أم نشأ الزواج من الأسرة . فنحن نلاحظ فى مجتمعنا

الحاضر أنه ما من أسرة إلا وكانت ثمرة لزواج ، وكذلك الحال في سائر المجتمعات البشرية التي عرفها التاريخ ، وإن كانت شريعة الزواج تتسع في حقبة أو مجتمع فتحلل ما حرمة حقبة أخرى أو مجتمع آخر
وأصحاب علم الإنسان يؤكدون أن الأسرة قديمة قدم المجتمع البشرى بل هي أقدم منه بكثير . . . فالثدييات العليا ، ومنها القردة العظام تحيا حياة فاعلية واضحة المعالم والمراسم يقوم فيها الذكر مع أنثاه أو حريمه وأبنائه مقام الأب في الأسرة الإنسانية من التجدير والحماية والرعاية جميعاً

ويكذب علماء النفس ما ذاع أخيراً على يد تلاميذ « فرويد » والمسرفين في تفسير مذهبه من أن الجماعة الإنسانية قد مر عليها حين من الدهر كانت تعيش فيها عيشة إباحة واختلاط لا تعرف المحارم . ذلك لأن الغيرة وهي أصل من أصول الأثرة والحيازة والملكية موجودة بين ذوات الأربع في كثير من الحيوان

وما يعيننا بطبيعة الحال أن نعرف هل قامت الأسرة في تلك العصور السحيقة عن زواج له قواعد ورسوم أم لم تقم . . . ولكن الذي يعيننا أن شعائر هذا الزواج وشرائعه متمكنة من النفس البشرية منذ عهد لا ندرك كنهه . وأنه قام لتنظيم هذه العلاقة التي تمس أصلاً من أقوى الأصول في الحياة ، وهو حفظ النوع البشرى فهو ينظم العلاقة بين شريكين كل منهما قبل الآخر ، وينظم هذه العلاقة قبل ما يصدر عنهما من نسل ثم هو بعد هذا كله ينظمها قبل المجتمع .

وقد مر بنا في الفصل السابق كيف احتفل المجتمع بهذه اللبنة الأولى

وكيف أحاط بدايتها وثمراتها بالتقديس والعناية والحماية أيضا وكيف أبرز لجميع أفراد النموذج العام الذى يرتضيه ، والذى يلزمهم بمحاكاته . ومجتمعنا المصرى من أكثر المجتمعات احتفالا بالزواج وتقديساً له وحماية للعلاقة الزوجية ، وتأكيداً لعواطف الأبوة والأمومة والبنوة جميعاً . ولكم عيّر وجدانه فى أمثاله وأغانيه وملاحمه ووصاياه عن هذه العاطفة ، فنحن نجد الوجدان الشعبى يرغب عن تلك الغنائية التقليدية فى الشعر الفصيح التى اتجهت بكليتها تقريباً إلى الحب العذرى أو الأفلاطونى وجعلته عاطفة حزينة تصطبغ بعادات المجتمع وتقاليد المجتمع ، ثم تحولت به إلى حلية تقليدية يبكى الشاعر فيها طملاً لا واقع له ، أو يتغزل بمثال لا حقيقة فيه أو ينحرف عن الفضائل الثابتة ، ويتغنى بالتحلل الاجتماعى والشذوذ الجنسى . وجسم الوجدان الشعبى الحب المتعقل ، أى حب الرجل لزوجته وعطفه عليها وخوفه من فراقها والبكاء عند توديعها والاحتفاظ بذكراها والفرح ببقائها . ولم يجعله وقفاً على جانب الرجال وحدهم ، بل رسمه مشتركاً متبادلاً ، وأجرى على لسان الزوجة مثلاً أجرى على لسان الزوج مختلف العواطف المبهجة أو المحزونة . وهذه الحصلة إن دلت على سمة فنية ، فإنها تدل فى الوقت نفسه على النموذج الاجتماعى العام . وأنت ، إذا تصفحت سيرة بنى هلال مثلاً فإنك تجد الشواهد الكثيرة الناطقة بهذا الواقع النفسى . فالخازية وهى الأم المثالية فى تلك السيرة الشعبية ، وشكر الشريف زوجها . يفصحان عن هذا الضرب من العاطفة الزوجية . وأنت تجد الزوجات والأزواج فى الملاحم الشعبية سواء فى هذه العاطفة . كما أنك تلمح الأبوة

مجسمة في الأبطال جميعا والأمومة مشخصة في النساء جميعا، وتلمح إلى جانب هذا كله الحب الممزوج بالاحترام عند الأبناء والبنات بلا استثناء . ولن تطلع من هذا الوجدان الشعبي على تحلل أو شذوذ أو انحراف . ذلك لأن المجتمع لا يمكن أن يعمل على إضعاف ذاته ، وتوهين علاقاته ، وتفكيك أواصره . ومن ثم أسقطت الملاحم كل ما يتعلق بالشذوذ والتحلل ، لا لأن الشعب لم يلاحظه في العناصر المتخاذلة والأفراد الضعاف أو المرضى ولكنه أثر أن يكون إنكاره لهذه الرذائل بحذفها من ملاحمه حذفاً يكاد يكون تاماً .

يبد أن هذا لا يمنع الوجدان الشعبي ، بما جبل عليه من النزوع إلى النقد والتقويم والإصلاح من ذكر هذه الرذائل في نوادره وملحه ونكاته وهو بهذا يصفها أمام أفراد « على المشرحة » يحللها ويدعو بطريقة غير مباشرة وغير وعظية إلى محاربتها والتخلص منها ، وكما جسم فضيلة الرابطة الزوجية في ملاحمه وأكدها في وجدانه فكذلك جسم رذائل التحلل والانحراف في سفره وتهكمه لكي ينفر منها ويعمل على تخليص أفراده من الوقوع فيها .

والمجتمع المصري يقدس الأسرة ، ويكبر من شأن الزواج ، وهو على الرغم من الظروف الكثيرة التي مر بها في تاريخه البعيد والقريب لا يزال يتشبث بهذا التقديس للأسرة والإكبار للزواج . ولقد دلت الإحصائيات على أن هذا المجتمع بنجوة من التحلل الكبير الذي استحدثته الحروب بين تكافؤ الجنسين في العدد . ومراسيم الزواج عقدة ترتبط في البيئة الريفية بمواسم الحصاد فلا يكاد يبلغ المبرء سن الرشد ويحصل على عمل ويستقر فيه حتى يقبل على الزواج وهو في هذه الناحية يختلف كثيراً بل يباين بعض

المجتمعات الغربية التي شاع فيها الانصراف عن الزواج وعن الأسرة مما أدى بأحد الكتاب الغربيين إلى أن يؤلف كتاباً عنوانه « إفلاس الزواج » . ودفعت الظروف الاقتصادية، إبان الحرب وبعدها، المجتمع دفعا إلى أن يعدل في مراسيم الزواج تعديلا يمس مظهرها ولا يمس جوهرها فإن الطبقات الوسطى تخففت من نفقات الاحتفال واستبدلت به « اجتماعاً عائلياً » يجسم النموذج الاجتماعي المنشود ويدفع إلى تقوية الأواصر ويؤكد عنايته باللبنة الأولى وهي الأسرة . ويسرب في النفوس مشاعر البهجة بميلاد أسرة جديدة والأمل في رفاها وإثمارها واكتفت بالإعلان في الصحف لإقامة الركن الذي لا يتم الزواج بدونه وهو الإشهاد العلني الدال على اعتراف المجتمع بهذه العلاقة الجديدة وإقراره لها لمسايرتها نموذجها العام . . ولم يعد الزواج عند الذين يقدرون قيمته الاجتماعية وسيلة تظاهر فردي يحققه الشرف ، وطبعت الحياة في المدينة المكتظة معدات الزواج بطابع الفائدة والاستمرار لا بطابع الزينة والكثرة وإن زادت على القدرة وتجاوزت طاقة المسكن ولاحظنا في بعض البيئات المتعلمة عدم التفاني في طلب المهور حتى يقبل الرجل على حياته الاجتماعية الجديدة دون أن ترهقه البدايات : ونحن على يقين من أن هذه المراسيم الجديدة التي تحل محل القديمة تقوم بالوظيفة الاجتماعية خير قيام وسوف تشيع في الكيان الاجتماعي كله على اختلاف بيئاته وطبقاته .

ودخلت المرأة إلى سوق العمل في الطبقتين الوسطى والدنيا وكان دخولها مسائراً لطبيعة الحياة وظروف التطور الاقتصادي، فالواقع أن المرأة المصرية

لم تكن حبيسة جدران وهيدة دار بالمعنى الذى تبادر إلى بعض الأذهان فى الجيل الماضى وفى هذا الجيل ، فقد كانت فى ريف مصر سائرة أو كالسافرة تعين زوجها فى عمله ، وأدى قانون تقسيم العمل إلى تخصصها وتخصصه ، كما كانت فى المدينة هى المدبرة لشئون البيت ، القوامة على تربية البنين ، الساهرة على مصالح الجميع . ولما أخذت تتحول مصر رويداً رويداً ناحية الصناعة وضافت التربة السوداء بأهلها المتكاثرين واكتظت المدن وتركزت فيها أسباب الإدارة والأخذ والعطاء ، وارتفع مستوى المعيشة ، وانتشر التعليم تأهلت المرأة فى أول أمرها لمهن التمريض والقبالة والتدريس ثم اقتحمت سائر الأبواب بعد ذلك تقريباً وأخذت تستعد للنهوض بمهن التقاضى والهندسة وما إليها بسبيل . ولم يؤثر ذلك فى الرسم البيانى للإقبال على الزواج ، كما حدث فى أوروبا وأمريكا ولكنه على العكس أعان هذا الخط على الاطراد والارتفاع ، وكان قد آذن بهبوط ، ذلك لأن الرجل الذى كان يخشى من بناء الأسرة وتبعات الزواج أصبح يستطيع متعاوناً مع زوجته العاملة أن ينهض بمسئولية الحياة العائلية . فأخذت المرأة المتعلمة العاملة تستطيع أن تنوب عن ولى أمرها فى تجهيز نفسها للزواج ، وأدى هذا التعاون بين الشريكين منذ اللحظة الأولى إلى التخفيف من المراسيم القديمة فدفعها المجتمع بذلك إلى أن ينفص عن كاهله تلك المراسيم وأصبحت فى ذاتهما نموذجاً تقدمه الطبقات الوسطى المتعلمة إلى سائر البيئات الاجتماعية .

واستتبع الحرب الماضية ازدياد عدد العاملات عند سفح الكيان الاجتماعى ، ورأينا الظاهرة التى تماثل ما شاهده المجتمع الغربى إبان الثورة

الصناعية ، وهذه الظاهرة هي التي سميت عند الغربيين بخروج صاحبات « الجوارب القصار » اللاتي يعملن في مصانع الأزرار والسجاد والنسيج وجمع المواد وتصنيفها وبيعها . وكان موقفهن من الزواج ، كموقف المتعلمات سواء بسواء إذ استطعن أن يدخرن لتجهيز أنفسهن لحياتهن المقبلة وساعدن على الإقبال على الزواج بتعاونهن مع الشركاء الذين يقومون باختيارهن كما أنهن قمن نيابة عن أولياء أمورهن بما تتطلبه مراسم الزواج من نفقات ! وبدخول أولئك وهؤلاء إلى سوق العمل تغيرت الصورة الظاهرية لقوام الأسرة ولكن جوهرها ظل سليما لم يندش ، وإن واجهت هذه الأسر الجديدة مشكلات جديدة لم يكن للمجتمع بها عهد ، أو كان يألفها على نطاق ضيق لا يؤبه به ، ومن هذه المشكلات رعاية الطفولة الناشئة من شريكين يضطرهما عملهما إلى مغادرة البيت شطرا كبيرا من النهار ومنها القيام بالخدمة المنزلية ، ولكن الحياة التي تفيد أبدا من التجارب وتوازن أبدا بين نظمها ومقتضيات التطور تدفع إلى التخلص من هذه المشكلات ، يعين على ذلك التخفيف من العمل المنزلي ، واعتماد أفراد الأسرة على خدمة أنفسهم بأنفسهم ، ومحاولة الموازنة بين العمل الخارجي والعمل الداخلي واستعانة المقتدرين بالآلات التي توفر الجهد والوقت معه وسوف تدفع هذه الظاهرة إلى شيوع المؤسسات التي تنوب عن الأمهات في رعاية الرضيع والصغير وشيوع مدارس الحضانة التي ترعى أبناء الغد في المرحلة التي تسبق التعليم العام . .

واحتفل الأدب الشعبي الحديث بخروج المرأة إلى سوق العمل واتخاذها

خطأ من الاستقلال الاقتصادي وتغيير شخصيتها بالنسبة إلى شريكها وإلى العرف القديم ، ورأينا القصص والأغاني والنوادر التي تحكى هذه الظاهرة ، وتبالغ في تصويرها مسيطرة للوجدان الشعبي في نقد أفرادهم وتصويب سلوكهم وتقويم شخصياتهم وعدم التخلي عن نماذجهم القديمة قبل أن يستكمل اختبار النماذج الجديدة والتأكد من سلامتها ، وقدرتها على القيام بوظائفها الاجتماعية في توثيق الأواصر بين عناصر اللبنة الأولى في المجتمع وهي الأسرة من ناحية ، وربط هذه اللبنة بالكيان الاجتماعي العام بأسبابها القوية المتينة من ناحية أخرى ، ومن أجل ذلك لاحظنا كيف أخذ الوجدان الشعبي يتخفف من النقد شيئاً فشيئاً ويتجه إلى معالجة الظروف الجديدة معالجة إيجابية وينظر في تفاصيلها وخصائصها نظرة فاحصة ، ولن يمضى طويل وقت حتى ينصرف عن هذا الوضع إلى غيره بعد أن يتأكد من وفائه بالغاية التي ينشدها وهي سلامة الأسرة . والدارس لهذه النقديات في حديثها الأولى وفي موضوعيتها بعد ذلك يلاحظ أن المجتمع المصري لم تأخذه الدهشة من خروج المرأة المتعلمة إلى سوق العمل وبروز المتأهلة ببعض الخبرة إلى سوق الصناعة ، ذلك لأن العمل لا يناقض الأسرة في نظر المجتمع فالمرأة كانت تعمل في البيئة المصرية دائماً ، سواء أكان ذلك في الحقل أو في البيت ، وكل ما حدث إنما هو تغيير في سوق العمل أدى إليه التطور وهو لا يحرص على شيء حرصه على الموازنة بين عمل المرأة وواجبات الأسرة . .

وينطىء من يظن أن الشعب المصري ، شعب مزواج كما ذهب إلى

ذلك كثيرون من الباحثين الغربيين الذين التفتوا إلى هذا الشعب متأثرين بأفكار سابقة وعقائد خاصة لونت آراءهم فيه . والواقع أن الشعب المصري من أكثر شعوب الأرض نزوعاً إلى الاستقرار بصفة عامة ، والاستقرار العائلي بصفة خاصة ، والنموذج الذى أكدته فى أساطيره القديمة وفى ملاحمه وفى قصصه وأغانيه أيضاً يقطع بأنه يؤثر سلامة الحياة الزوجية من كل تقلقل وكل اضطراب ويحرص على حمايتها من أى عنصر يفسدها أو يثيرها أو يعصف بها . ولذلك نرى أن الأصل عند الشعب المصرى هو عدم التعدد . . والمجتمع لا يبيح للرجل أن ينصرف عن زوجه إلى غيرها إلا لمبرر قوى وفى أضيق الحدود ومعنى هذا أن الوجدان الشعبى لا يرى فى الزواج عملاً طائشاً أو مجرد إشباع لنزوة أو متعة ولكنه يراه ضرورة من ضرورات الحياة ويتزهد عن الطيش والهوى والاستمتاع الرخيص . وليس من شك فى أن النموذج الإقطاعى القديم والدخيل هو الذى حاول أن يكسب نفسه رخصة الزواج بلا ضابط اجتماعى عام ، لأن الإقطاع لا يستشعر مسئولية اجتماعية قبل سلطة أعلى منه ، ولا يحس فى نفسه من هذه الناحية رقابة اجتماعية كرقابة الضمير ، ودفعه ذلك إلى أن يبرر مسلكه على الأجيال ووضع نموذجه الذى لا يستقيم مع الوجدان الشعبى العام ، وإنما يستقيم فقط مع الوجدان الإقطاعى الخاص . . والوجدان الشعبى وهو الذى يتحول فى كثير من الأحيان إلى رأى عام وإلى إرادة عامة كثيراً ما أعلن عن نفوره من التعدد بلا ضرورة ملحة وبلا سبب صحيح تفره الجماعة ، وكان الوجدان الشعبى أعمق إدراكاً لروح الشريعة الإسلامية السمحة

التي رخصت التعدد . وأنت تستخلص من هذا كله أن الهيئة الاجتماعية رقيقة على اللبنة الأولى ، وهي الأسرة ، ساهرة على سلامتها ، عاملة على تصحيح أوضاعها بحيث تسير النموذج الذي وضعته .

ولم يكن المجتمع المصري ، وهو أقدم مجتمع متجانس عرفه التاريخ ، بدعا بين سائر المجتمعات المتماثلة ولذلك فقد حرص منذ أحسن وجوده أن يضع القواعد التي تنظم اختيار الشريك . . كانت في يد وليّ الأمر وهو الأب عندما كان يسمح بالزواج بغير الراشدين ثم اعترف بإرادة الشركاء أنفسهم إلى جانب أولياء أمورهم عندما نزع المجتمع إلى حماية اللبنة الأولى من سوء الاختيار غير المرتكز على البصيرة والإرادة وعندما حدد السن الأدنى للراغبين في الزواج . وفي جميع الفترات كانت هناك نظم تختبر فيها قدرة الشريك على القيام بالتزاماته العائلية ، ولما كان المجتمع المصري من المجتمعات التي أنشأت الحضارة في العصر القديم منذ آلاف السنين فقد تجاوز المرحلة البدائية مبكراً ، ونأى بجانبه عن تلك الوسائل التي فرضتها المجتمعات المتبدية كاختبار الشريك بالقدرة على احتمال عدد معين من ضربات السوط أو التعرض للدغات النحل أو البراعة في اصطياد رعوس العدو ! وآثر المجتمع المصري وسائل أخرى ، وقد كان مجتمعا متحضراً مستقراً وتركز هذه الوسائل في اختبار قدرة الشريك على إعالة زوجه وبنيه ، والنهوض بمسؤولياته الخاصة والعامة معا ، وظلت هذه الوسائل قروناً متطاولة تقوم بوظيفتها الاجتماعية خير قيام ، وإن تعددت رسومها وتنوعت صورها من بيان أرض يملكها ويغلها ، أو القيام بعمل

أو مهنة تدر عليه كسباً موصولاً ، أو مقام اجتماعي يجعله صاحب نفوذ وسلطان . . ومن الخير أن نذكر هنا أن زواج الأطفال غير الراشدين كان سمة من سمات النظام الإقطاعي الذي يقوم بتوريث الأعمال والمهن والمرتبات الاجتماعية ، وهذا التوارث لم يكن يناقض اختبار الشريك لأن هذا الاختبار كان متضمناً في الإقطاع لا يحتاج إلى ظهور أو إلى تجربة ، وكان بقاءه بعد ذلك تصوراً ذاتياً لا غناء فيه ، اللهم في البيئات الزراعية التي ظلت برغمها خاضعة للإقطاع . ولم يترك الشعب هذا التحول يمر بلا تعليق ولكنه كان كعادته ينزع إلى نقد الحديد حتى يتم له اختباره ومن هنا استمع المصريون إلى أغان كثيرة تنفكه بسلطة الدولة في تحديد سن الزواج للفتاة ! . . واحتفل الشعب إلى جانب ذلك بالحد الأعلى للسن ، وهو ما لم يوضع فيه نص قانوني كالحد الأدنى ، ولم ينظر الشعب إلى زواج الشيوخ في ذاته ، وإنما نظر إلى التباين في السن بين الشريكين ! زواج الشيخ من فتاة في سن ابنته أو أصغر ، وزواج المرأة العجوز من فتى في سن ابنها أو أصغر ، وألف المجتمع من هذه الصور غير المتكافئة في قصصه وأمثاله ونكاته رسوماً كاريكاتورية شتى . ولم يكن هدفه مجرد الضحك أو التندر ، ولكنه كان يضع بطريقة سلبية نموذجاً الذي يعتمد على التكافؤ في النظر إلى الحياة ، ويدعو بوسيلة غير مباشرة إلى حماية اللبنة الأولى من هذا الحلل الكبير في النسبة والتناسب بين ركنيها الأساسيين ، وهذا أنت ترى أن وجدان الشعب كان أسبق وأدق حتى من القانون المكتوب ، ذلك لأن هذا القانون يجيء دائماً متأخراً عن

العرف ، ويجيء تسجيلاً له ، وهو يتطور ويفيد من السوابق والتفاصيل التي لم تكن في ذهن المشرع عند وضع بنوده .

وربما كان احتفال المجتمع المصري بالقواعد التي ترسم البدوات المحددة لاختيار الشريك من أوضح السمات التي تظهرنا على إحساسه بذاته دائماً أبداً ، ومحافظة على وجوده دائماً أبداً والانتباه إلى كل شبهة يتصور إخلالها بالتوازن فيه أو إضعافها للروابط التي تشد لبناته بعضها إلى بعض ونحن نمر بالقواعد الداخلية والخارجية المقررة التي تبين الحرام والحلال في الزواج والتي تذكر في تفصيل الأجيال التي يكون الشريك منها ، ونقف عند القواعد الأخرى التي تحمي المجتمع من التسرب الأجنبي في داخل كيانه ، فقد كانت العصبية القديمة في الماضي تحرم على بعضها الإصهار إلى بعض ولا تبيحه إلا إذا كان مسائراً لعلاقات المودة بين عصبيتين أو مستحدثاً لهذه العلاقات . والوجدان القومي أوسع من الوجدان القبلي وإن كان يشبه في هذه الصفة ومن هنا كان المجتمع المصري كثيراً ما يتردد ويتحرج ، بل يأنف أحياناً من زواج المصريين بالأجانب ، ونقصد بهم أولئك الذين لا يرتبطون معه بأواصر القرابة أو الجوار أو المودة ، والذين تختلف مقومات ثقافتهم عن مقومات ثقافته ونظرة المجتمع المصري إلى الرجل والمرأة في هذه المسألة سواء ولكنه ساير الفطرة في درجة التحريم بين الجنسين فكان موقفه مع المرأة أقوى منه مع الرجل ، ولكم قاست الحضارات السابقة من التفريط في هذا الوعي الاجتماعي بل ولكم كان تسرب الأجانب إلى كيان المجتمع عملاً من أعمال الإصرار تدفع

به قومية معادية أو دولة معادية ونتائج هذا وذاك يعرفها المؤرخون والاجتماعيون ولو كشف النقاب عما دفعت إليه بعض القوميات المتهوسة من التخلي الظاهري عن ولائها القومي بل وعن دينها والتسرب في مجتمعات تباينها لاستطعننا أن نفسر كثيراً من الظواهر السياسية في المجال الدولي ! وكان الشعب المصري حساساً جداً في هذه المسألة بالذات ، وهذه الحساسية تجسم شعوره بذاتيته العامة وحرصه الكامل المستمر على سلامتها. وانعكست حساسيته هذه على أدبه وبخاصة عندما التقى بمحضارات أخرى ، والتقى الأدب الفصيح والشعبي في التعبير والتصوير والنقد ، وما نطن أن حساسيته بها ستخف ، ذلك لأن النموذج الذي وضعه لعناصره وأفراده لم يتغير ولأن محافظته على كيانه لم تضعف وهو لا يريد أن يعترف باستعلاء مجتمع آخر عليه ، ولا يجب أن يستشعر أفراده عقدة نقص في ذواتهم تدفعهم إلى تعويضها أو التسامى بها عن طريق البناء بالأجانب . . .

وإذا كان المجتمع ينظم عن طريق الزواج الانتخاب الطبيعي بين الجنسين قدر الطاقة فإنه عمد في الوقت نفسه إلى تنظيم الوسائل التي تحل ارتباطاً قام بلا انتخاب طبيعي لضرورة من الضرورات أو خطأ من الأخطاء وحل الارتباط هو « الطلاق » وهذا هو الأصل الاجتماعي فيه وإن رفضته بعض المجتمعات أو خرجت به بعضها الآخر عن هدفه ومرماه. وكان طبيعياً أن يحرص المجتمع على اللبنة الأولى والأصيلة وأن يحميها من سوء الاستعمال للطلاق ، لأنه يعني بتوثيق الروابط ، وينأى بجانبه عن توهينها أو حلها ، وأدى به هذا الحرص أولاً إلى النفور من الطلاق

وثانياً إلى عدم استعماله إلا في أضيق الحدود ، وللضرورة القصوى عند الدفاع عن الذات الجماعية ، فهو لا يسمح به إلا إذا ثبت له أن العلاقة التي ربطها الزواج لا تسير نموذجاً ولا تعمل على مصلحة ذاتها ومصلحة المجتمع معها .

ولما كان المجتمع على الرغم من تجانسه وتبلوره يحكى الأطوار الثقافية السابقة على وجوده بصورته الراهنة ، مثله في ذلك مثل الكائن الحي الذى يحكى أطوار الحياة قبله ، فقد اختلفت أنظار الطبقات والبيئات إلى الطلاق تتسع دائرته في طبقة أو بيئة ، وتضيق في غيرها كما أن المجتمع يمر أحياناً بفترات يتخلخل فيها كيانه فيفسو الطلاق ، وبفترات أخرى تماسك عناصره ، وتقوى لبناته فيضيق الطلاق ، ولكن وجدانه العام ظل دائماً يتخرج منه ولا يسمح بممارسته إلا إذا دعت إلى ذلك أسباب جوهرية تؤكد الحياة والعجز عن النفقة والسفه وما إلى هذا بسبيل ، وهو وجدان مستمر يناقض وجدان البدائيين أو جماعات التجار الجوايين ، ولم يجنح إلى ما جنحت إليه مجتمعات أخرى من تقاليد عجيبة أوردتها في قصصه لما فيها من مغامرة لأوضاعه الثابتة ونماذجه الوطيدة ، من ذلك ما يتندر به من تطليق النساء لأزواجهن لأوهى الأسباب ! وهو منطق معكوس عند المجتمع المصرى . . معكوسة لأن المرأة هي التي تملكه . . ومعكوس لأنه يقوم لأسباب غير معقولة ، والمجتمع المصرى عاش دهره ، نزاعاً إلى الوحدة مترابط الحلقات ، ومن أجل ذلك قاوم الطغيان والإقطاع والاستعباد والتسخير والحكم الأجنبي ، ولم يشع الترف في كيانه الأصيل

ولأنما شاع في فترات ومراحل في قمة الهرم الذي يتألف منه وتجاوزه قليلا إلى العناصر المرتبطة بهذه القمة، والتي تعيش لها فبقيت الحضارة المصرية محتفظة بقوامها ولم يصبها ما أصاب بعض الحضارات القديمة والوسطى وما بدأ يصيب بعض الحضارات الحديثة أيضاً . والمؤرخون يذكرون . مثلاً أن الحضارة الرومانية عندما أصابها الشيخوخة وانتشر فيها الترف والتحلل نزعت إلى الطلاق وكان هذا التزوع مظهر فنائها ودليل تلاشيها ، وبلغ من شيوع الطلاق عند الرومان في تلك المرحلة أن المرأة كانت تؤرخ حياتها بعدد الأزواج ، كأن تقول : العام الأول للزوج الثاني ، أو العام الثاني للزوج الثالث أو الرابع وهكذا ! وعندما فقد الإقطاع في مصر وظيفته وتخلخلت الحياة العامة في السنوات الثلاثين قبل الثورة وجدنا الطبقات التي كانت تأنف حتى من الالتجاء إلى المحاكم عند اختلاف الشريكين أصبحت تتسامح في حل عقدة الزواج ، بيد أن المجتمع نفسه ظل على موقفه من إنكار هذه التصرفات ونقدها وليست حوادث الطلاق التي تتفنن الصحف في إيرادها وتكثر من الخوض فيها دليلاً على شيوعها ، ولكن هذا النشر يدل في ذاته على الطرافة ، وهو الاستثناء الذي يثبت القاعدة ولا ينفىها . . . والنماذج الجديدة التي تزداد أخبارها وصورها على الناس لبعض الذين يخيلون لأنفسهم ولغيرهم أنهم كواكب سيارة أو أصحاب عبقرية تبيح لهم الخروج على المألوف لإظهار عارضة على سطح الكيان الاجتماعي كالبثور ولا تدل بحال من الأحوال على تخلخل أقدس روابطه ، وهي الزواج ولا على تقلقل أثبت قوائمه وهي

الأسرة . . . والمجتمع المصرى متدين بفطرته ، أيا كانت عناصره ، وهو لذلك يتشبت بالمثل العليا التى وضعها الدين له ، وهى مثل تدعيم كيانه وترفع معنويته وتجعل لحياته قيمة فى ذاتها وهدفاً سامياً تسعى إلى تحقيقه . والدين ينظم الزواج ويجعل الطلاق أبغض الحلال عند الله ، ويثبت الأسرة ويوثق العلاقة بين أركانها وأجيالها وبينها وبين المجتمع كله . . . والدين يضع الفضائل الأخلاقية ويأمر الناس باتباعها ويذكر الآفات الاجتماعية وينهى الناس عنها ، وحرص المجتمع على مثل الدين حرصه على ذاته والتقى نزوعه إلى التوحد والتآزر بأوامر الدين ونفوره من الانحلال والشذوذ بنواهى الدين . والزواج عند المجتمع المصرى شعيرة دينية واجتماعية معاً والأسرة عنده هى اللبنة الأولى التى لا يقوم غيرها والتى لا يمكن أن تقوم بوظيفتها الكبرى فى الكيان الاجتماعى إلا إذا كان قوامها الدين والأخلاق والوطنية ، ولم تعد تكاليف الحياة الزوجية عبثاً يهبط الأزواج لأن الدولة ، وهى منهم ولهم ، تقوم عنهم بالتربية والتعليم وسائر الخدمات الصحية والاجتماعية . . .

الجلباب الأزرق

. . انعكست صورة البيئة الطبيعية ، أو خصائص الوطن على المجتمع المصرى فبدا قوامه مطابقاً لقوام تلك البيئة وذلك الموطن . وإذا كنا لانزال نردد ما قاله المؤرخ القديم « هيرودوت » من أن مصر هبة النيل ، فليس ذلك لأن النيل هو الذى أكسبها تربتها الخصيبة السوداء فحسب ، ولكن لأنه أعطاها أيضاً صورته وخلقه ، والكيان الاجتماعى المصرى ، كالمدرجات النيلية سواء بسواء ، فهو لا يقوم على التباعد ، ولا على التنافر بين طبقاته وعناصره ، بل يقوم على التآزر والتماسك بين تلك الطبقات وهذه العناصر . والتآزر والتماسك لا يمكن أن ترث حبالهما ، أو تضعف روابطهما ، لأن المجتمع المصرى كله ، يقيم حياته على تعاون أجزائه وتضامن جوارحه ، وتساق خطواته . ولعل أبرز الشخصيات الخاصة فى الكيان الاجتماعى المصرى ، إنما هو « الفلاح » الذى قام ويقوم باستنبات الأرض ، واستخلاص ما تنتجه من ثمرات . من أجل ذلك كان هذا الفلاح هو أقدم وأثبت الشخصيات أو النماذج البشرية فى المجتمع المصرى ، كما كان دعامة من أقوى الدعائم التى يركز عليها هذا المجتمع ، فمجموع أكوأخه فى القرية والأرض التى يفلحها هو الأساس الأول ، وما المدينة إلا جزء منه ، وإشعاع عنه ، والترابط بين الحقل والقرية والمدينة هو

الأصل ، وضعفه وفقدانه انحراف عن هذا الأصل ، وخروج على مقتضيات التأزر والتماسك الذين يتسم بهما المجتمع المصرى .

والقرية المصرية تُباين من حيث الشكل القرى المتناثرة فى أوروبا ، لأنها مجموعة من الدور المتلاصقة التى تكاد لفرط التصاقها تكون وحدة مترابطة لا يبعد جزء من أجزائها عن الآخر ، أما فى أوروبا فنحن نجد القرية تتألف من دور منفصلة بين كل منها والآخر مسافات تتفاوت قرباً وبعداً . ولهذا التلاصق فى قرينتنا وظيفة اجتماعية ما فى ذلك شك . ومن اليسير أن نتعرف على هذه الوظيفة إذا نحن أدركنا ما كان يتعرض لها الفلاح المصرى فى تاريخه الطويل من الأذى والاضطهاد ، واستنزاف المحصول ، واستيلاق الأموال فأحس بأنه لا يمكن أن ينفرد بذاته ، وأن قوته كواحد من الآحاد ، لاتستطيع أن تدفع عنه عادية التهجم والاضطهاد والاغتصاب ، ومن أجل ذلك اندفع إلى التأزر مع أقربائه ، وبنى جلده فى صعيد واحد ، وألفوا مجتمع القرية ، وبنوا مساكنهم على هذا الطراز الموحد فى الشكل ، وعلى هذا النمط المتساند المتلاصق ، فضرورة الأمن الجماعى هى التى رسمت القرية على هذه الصورة منذ قرون وقرون ، فإذا ألمّ بالفرد ما يهدد ذاته أو أهله أو خيوانه خف جيرانه إلى نجدته ! وكما يتشبث الفلاح المصرى بأرضه ، ولا يحب أن يتزع منها إلا إذا أكره على ذلك إكراهاً ، فإنه يحب النيل وفروعه وترعه وقنواته حباً معنوياً ومادياً فى وقت واحد . . . يحبه ويقدسه كما أحبه أجداده وقدموه ، ويحبه لارتباط حياته به ارتباطاً لا يمكن أن ينقسم ، فلا هو ولا أهله

ولا حيوانه يستطيعون العيش بدون هذا النيل ، ومن ثم حرص على مياهه التي يستقى منها كما تستقى أرضه ، وهو لا يعدل بها مياه العيون التي تتفجر من جوف الأرض أو التي يمكن أن تصعد إلى سطحها تصعيداً آلياً . وأدى به تفكيره في فعل النيل بأرضه ، وعمله على تخصيصها وإنباتها أن يزاوج بين هذه الفكرة وبين فعل النيل في جسمه ، فقرن بين ماء النيل ، بل وطمى النيل وبين صحته وقدرته على العمل وتواصل الحياة بعده ، وهذه الرابطة بين الفلاح المصرى وبين النيل مظاهر متعددة : أولها : ما شعر به من ضرورة التعاون في الحصول على مياه النيل ، وثانيها : وهو يتفرع عن الأول ، عمله على تنظيم الحصول على هذه المياه بشق الترع والقنوات ، وثالثها : النهوض بإقامة الجسور عند الفيضان ، ومن ثم فطر الفلاح المصرى على مسايرة الطبيعة في انتظام الفصول والفيضان واستجاب لهذا الانتظام في بذر الحب والحصاد جميعاً ، وفي تهيئة الأرض وريها قبل ذلك ، كما فطر على عدم الاستقلال بنفسه ، واعتزال الآخرين في محيطه ، ووجد أن ضرورة الحياة تلزمه وتفرض عليه التعاون في العمل والتضامن في التبعة والمسئولية .

والأصل في هذا النموذج الإنسانى أنه ابن الأرض ومالكها وزارعها والمفيد منها ، وهذا الأصل هو الذى جعل الفلاح يحرص أشد الحرص منذ أقدم العصور على تثبيت ملكيته للأرض ، وتسجيل هذه الملكية بحيث لا ينازعه ولا ينازع ذريته فيها أحد ولا يغتصبها منه أو من ذريته . أحد ، وجاءت القوانين التي دونتها الهيئة الاجتماعية تأكيداً لهذا الغرض

وتأصيلاً لهذا العرف : وكان الأصل القديم كذلك أن تتسع دائرة التعاون بين الأفراد حتى تشمل المجموعات البشرية التي تقوم بفلاحة الأرض في شتى الأقاليم التي ينتظمها الوطن المصري . وقد مربنا نزوع هذا الوطن إلى التوحد بفعل طبيعته المادية ، ومن ثم كانت السمة الأولى والأصيلة ارتباط الحكومة بالقرية وتنسيقها بين مصالح الجميع بلا استثناء .

وظل الفلاح يقوم بعمله في استنبات الأرض أحقاباً لا يكاد يحصيها العد ، ولكنه تعرض في أثناء تاريخه الطويل لعوامل أقوى من إرادته . . . عوامل فكرت في المصالح القريبة لبعض الأفراد والدول والطبقات دون أن تدرك خروج فعلها على طبيعة الحياة وفطرة الناس في هذا الوطن المصري . . . عوامل سخرت الفلاح واستعبدته وملكته الأرض دونه ، واجتكرت الخير الذي يثمره . وكثيراً ما كانت تقاوم هذه العوامل فيوقف تيارها حيناً ويتغلب عليها حيناً آخر ، ولكنه لا يكاد يفوق من أحدها حتى يأخذه آخر ، وكأنما كانت سياقاً مضطرباً لا فرجة فيه . وأدى به هذا الصراع إلى ما يشبه الاستسلام والركون إلى اليأس .

وقد مر بنا تأثير هذه المغالبة للظروف القاهرة على المزاج المصري بعامة ، وعلى مزاج الفلاح بخاصة ، وكيف اضطرب إلى الخروج النفسي من الأحداث التي يتعرض لها ، والاستعلاء عليها بالفكاهة والتندر والسخر ، وكأنها أحداث لا تقع له ولا تحقيق به ، وإنما يتعرض لها غيره ممن لا تربطه بهم مشاركة وجدانية ما . وأصبح الفلاح أوفى إلى المتفرج على الأحداث منه إلى الواقع فيها والعامل على التخلص منها ، ثم أصبح مستسلماً لما يأتي

به الغد وكاد يفقد ثقته بنفسه وإرادته وبقدرته على تغيير الظروف .
ونحن إذا لاحظنا الأدب الريفي ، فسوف تطالعنا حقيقة بارزة ،
وهي رنة الخوف والأسى التي تغلب على أغانيه ، بل إن المواويل التي كان
الأصل فيها استثارة الحماسة رفعا للروح المعنوي وشجدا للهمة وتهيئا لكفاح
عدو ، نسي غرضها الأول وانطمس معناها الذي أكسبها هذا اللون
الأحمر في التسمية ، وأصبحت كالمواويل الخضر التي تتغنى عواطف
الاستقرار والسلم والغزل وما إلى هذا بسبيل ، كما أن نغمة هذه المواويل
عند الإنصات إليها واحدة ، تشترك كلها في الأنين والشجن والبكاء على
مفقود . والمعنى المستخلص من هذه الظاهرة هو أن الفلاح لم يعد يستجيب
لأغراض الحماسة لطول ما تعرض له من ظلم ، أما الملاحم الشعبية التي
يقبل الفلاح على تذوقها ويتفاعل معها فقد كانت وظيفتها الأولى أن
ترسم له المثال الاجتماعي الذي ينشد ، مثلها في ذلك مثل التاريخ القومي ،
فهو يسمعها على أنها حقيقة وقعت بالفعل ، وليس من تلفيق القصاص
أو مبالغة المنشئين . . . ووقائع حدثت لقومه وعشيرته أو حدثت لجماعة
بينها وبينه صلة رحم ، فهي ترسب تراثه ، وتجسم فضائله ، وتظهر ما خفي
من نزعاته ، وترسم مثله في الحياة الخاصة والعامة ، وتعوضه عن النقص
الذي يستشعر به ، ولكن هذه الوظيفة الإيجابية تحولت على الأيام إلى
وظيفة سلبية . . تحولت من استثارة انفعال تفيد منه الحياة إلى التنفيس
عن شعور لم تعد الحياة تطيقه ، وانحرفت الحقائق التي كان يتصورها في
هذه الملاحم ، إلى أشباح لا واقع لها ، ولا تأثير إلا تفريغ شحنة شعور

مكبوت بوسيلة تقوم على الإيهام والتشحيل ، مثلها في ذلك مثل الأحلام
سواء بنساء .

وشاهد الفلاح المصرى أحداثاً كثيرة متعاقبة ، ولكن هذه الأحداث
متشابهة الصور متماثلة المشاهد .. دول تذهب ودول تجيء ، وأمراء إقطاع
يجيئون ليحل محلهم إقطاعيون آخرون ، وأجانب يسيطون يدهم على الوادى
الخصيب ، ويستقرون زمناً فتغنيهم الطبيعة المصرية فيما تغنى ، أو تلفظهم
فيما تلفظ . ويساق لمعارك لا شأن له بها ، ويسخر فى أعمال لا نفع له
منها ، والأرض على حالها ويكره على فراقها وتنشأ ذريته عليها ، وتكره هى
الأخرى على فراقها وهكذا دواليك .. والترع التى شقت والطرق التى
مهلت ، والأرض التى استصلحت ، تهمل عصوراً وتذهب معالمها
وتصبح عملاً من أعمال الأثريين والمؤرخين ، ويشق غيرها وتعدو عليه بعد
حين الكثبان السافيات أو الرمال المهيلة ، وتأخذ الطواعين من أقطاره ،
أو تتخطف أجياله ، وتضطره فى كثير من الأحيان إلى أن يستحل ما حرمة
فطرته ، فيأكل دواب الحمل ، وينبت ما بينه وبين المدنية ، وتقطع الأواصر
بينه وبين الحاكم الأجنبي جاءت به ريع مسموم ! ويتأمل حواليه
فيرى الكشاف يجوسون خلال أرضه . ينوشونه بسيوفهم وخنابجرهم ،
ويضربونه بالسياط ويستاقون أنعامه ، ويغتصبون محصوله ويحبسون أشياخه
وهو يقاوم حيناً ويصاير أحياناً فلا غرو أن تنسلخ عنه إرادة الحياة
والقدرة على تغيير الظروف . ويعجز عن التجمع الذى يكسبه المنعة ،
ويمنحه التآزر أو الدفاع عن الذات الجماعية العامة .

شاهد الممالك ينوش بعضهم بعضاً ويجمعون عليه .. شاهدهم أحزاباً متناحرة . الأمراء القبالي في الصعيد وشيخ البلد وعصبة في القاهرة وغير أولئك وهؤلاء ، ثم شاهد العثمانيين إلى جانب البكوات الممالك ، ورأى الباشا التركي يحتقر المصريين لأنهم فلاحون ، واستمع إلى الشنك ابتهاجاً بالقاصد من « الديار الرومية » ومعه الهدايا والخلع .. وشاهد كل مدينة تقوم برأسها مستقلة عن الأخرى ، لا يقدم إليها بمحصوله إلا إذا مُكس على كل شيء .. مكس حتى على الملح .. ومصالحه لا يمكن أن تقضى إلا بالرشاء وما أفدحها .. خاقان البحرين يقبل الرشاء ، ومثله يقبل الرشاء ، والبكوات والكشافون ومن لف لفهم أو عمل معهم يقبل الرشاء ، وانطبعت هذه الصورة في نفسه ، ثم استقرت لا يزايلها ، وعبر في أدبه الذي يتذوقه ويتفاعل معه عن هذه الصورة المريرة تعبيراً قوياً خصباً ، فنحن نرى في سيرة الظاهر بيبرس — مثلاً — كيف أن المصريين ضاقوا ذرعاً بديوان الحكومة فأنشأوا لأنفسهم ديواناً شعبياً آخر تقدم إليه الظلمات وتمتنع فيه الرشوة ، ويستقيم ميزان العدل ، وهذا الديوان لا يصد أحداً ولا يمنع أحداً .. الفلاح المحتقر من البكوات والبشوات يستطيع أن يصل إليه ، ويستطيع أن يعرض ظلامته ، وأن يأخذ حقه ، وهذه الصورة تشبه إلى حد بعيد بعض ما أثر عن الأدب في أيام الفراعين كقصص الفلاح الفصيح المشهورة ..

وحاول الغرب أن يبسط كفه على الوطن المصري ، وفشلت محاولته المجسمة في قوة نابليون وخليفته ، ثم نجحت على يد الإنجليز ، وقيل

العثمانيين ، وبلغت مسامع الفلاح أصداء أقوال ترددت في المدينة . .
ونادى بها المنادون في القرى ، وهي أن الوافدين الأجانب جاءوا للقضاء
على تسخير الفلاح والكرباج والاستغلال . . جاءوا لتخليصه من ربة
الباشوات . ولم يصدقهم لأن فطرته كانت أسلم من أن تجوز عليها خدعة
كبيرة كهذه ولأنه هو الذي تألف منه جيش غرابي ، وقاوم هذه الموجة
وأحس خيانة الأرثوذكسي وشيعته من بعض الإقطاعيين وضعاف النفوس .
ولم يكن قبل ذلك يثق في أمثال هذا القبيل فعلى يد كبيرهم أحرقت حجج
الأملاك ، وكان إحراقها مناقضاً للفطرة المصرية الزراعية المستقرة وهو
الذي احتكر الأرض كلها دون أصحابها والملتصقين بها أو العاملين على
إنباتها . وكان الفلاح مطمئناً إلى أن الصورة ستتكرر وإن تغيرت السحن
والأزياء ، وإن جاءت بشعارات أخرى . . شعارات لا مدلول لها ولا معنى . .
شعارات لا تحمل صدقاً ولا تدفع إلى سلوك يغير هذا الواقع المرير . .
وعادت شيع تلتف حول فرد من الأفراد كشيع شيخ البلد والأمراء القبالي . .
والحبال الثلاثة التي تلتقي وتختلف هي بعينها ، فكان القبيل آخر تغير
لقبه ، ومكان الباشا العثماني معتمد يمثل جيش الاحتلال ، ومكان الممالك
هذه الشيع . وظل الإقطاع الزراعي يغلب على الكيان الاجتماعي في
الريف ، وإن فقد وظيفته التي كانت له في القرون الوسطى . ذلك
لأنه كان وقتذاك سمة من سمات التطور ، يقوم بصورة من الصور على
التكافل الاجتماعي ، ولكنه تحول أواخر القرن الماضي ونصف هذا القرن
إلى إقطاع غشوم لا يحس بأية رابطة بينه وبين الأرض ومفليحيها ، إلا

ما يستاقه من خيراتها .

وشهد الفلاح المصري فوق هذا كله جمود الأرض الزراعية على حالها ، وازدياد عدده إلى حد يتجاوز طاقتها بكثير ، واجتذبت أنوار المدينة التي يستقر فيها السلطان ، وتركز الثروات ، فاضطر إلى أن يهجر الكثير من أفراد الأرض التي عاش عليها هو وآبائه أجيالاً وأجيالاً . ولم يحس أحد ببواعث هذه الهجرة ، وكل الذي تصوره الدارسون وقتذاك . ما تستحدثه من نقص في العمل الزراعي الذي يحتكره الإقطاع في المدينة وينفق أكثر غلته في خارج الحدود المصرية . ولم يلاحظ أحد أن هذه الهجرة إنما هي بطالة زراعية ، لأنهم عنوا بالبطالة الصناعية وحدها ، مسايرة لنموذج الحياة الغربية مع أن الريف المصري تعرض لتلك الظاهرة التي وقعت لريف أوروبا الغربية إبان ما أسموه بالثورة الصناعية ، وأصبحت في مصر ، قرية مهجورة تشبه في بعض الوجوه تلك التي وصفها الأديب الإنجليزي « أوليفر جولد سميث » عام ١٧٧٠ . وكان طبيعياً ألا تستوعب الصناعة هؤلاء المهاجرين جميعاً ، وهم المهاجرون الذين تحولوا فجأة من بيئة اجتماعية لها مقوماتها إلى بيئة اجتماعية أخرى لها مقومات تغايرها ولذلك اضطروا أن يقوموا بأعمال هينة غير ذات خبرة وتعرضوا في الوقت نفسه إلى ضروب من الصراع النفسي استحدثته النقلة من إطارهم الاجتماعي إلى هذا الإطار الجديد في قلب المدن أو عند أرباضها . وكثيراً ما لفظهم سوق العمل الصناعي وأرغمهم على البطالة المؤقتة أو الدائمة وكان من المتعذر عليهم أن يعودوا إلى بيئتهم الأولى وأن يندمجوا في النموذج الاجتماعي

الذى كانوا يحاكونه قبل مهاجرة الريف . . .
وكان الجلباب الأزرق شارة على القطيعة التى استحدثها الطغيان والاستعباد بين أهل المدن وأهل الريف ، وأصبح يجسم نوعاً من الوعى الطبقي المصطنع الذى يدعو إلى استعلاء أولئك على هؤلاء ، وأن المصريين بعامه والفلاح بخاصة ليدكر كيف كان الاستعمار الأجنبي يؤكد هذا المعنى ويكرره بمناسبة وغير مناسبة ، ويطلق على الفلاحين « أصحاب الحلاب الزرقاء » وذلك لكى يباعد بينهم وبين غيرهم من المواطنين ولكى يستحدث على أساس الاختلاف فى الزى واللون شعوراً بالمغايرة بين المتعلمين فى المدارس الذين انسلخوا عن القرية والأرض وبين آبائهم وإخوتهم فى الريف . وليس من شك فى أن هذا الاستعمار كان يعمل عن وعى لتغيير النماذج العامة ، والوقوف فى وجه وظائفها الاجتماعية الإيجابية ، فقد حرص منذ اللحظة الأولى على أن يسلخ المدارس ومعاهد التعليم عن القرية وعن الأرض ، ولذلك فرض عليها زياً معيناً وجعل برامجها تنحصر فى معارف نظرية لا علاقة لها بالحياة العملية ، وأقام فلسفتها على التلقين وفقدان الشخصية ، وأحاطها بالنظام الشكلي المحكم . وهو على الرغم من فشله فى فرض لغته على الشعب المصرى عن طريق التعليم ، وعلى الرغم من فشله فى تقديم أبحر البريطانية فى جغرافيتها وتاريخها على الوطن المصرى بخاصة والعربى بعامه ، وعلى التراث القومى العريق ، فإنه لم ييأس قط من محاولاته المتعددة فى فصل المدرسة عن « أصحاب الحلاب الزرقاء » كما كان يسميهم . واستحدث هذا الفصل بالضرورة هجرة منظمة أخرى من

الريف إلى المدن ، ذلك لأن التعليم كان يعنى امتيازاً اجتماعياً ووظيفة في الحكومة . وكان الصبي يهاجر من القرية إلى عاصمة المديرية ثم إلى القاهرة وبذلك تنبّت أكثر علاقاته بالريف . فإذا التحق بسلك الوظائف مرعوساً للإنجليز كان عليه أن يبتعد عن مسقط رأسه ، وكانت هذه الهجرة وخيمة العاقبة على القرية المصرية لأنها لم تنتفع بأفرادها المتعلمين إلا بمقدار ، ولو أنهم تعلموا وعملوا في القرية أو بالقرب منها في الإقليم لازدادت علاقاتهم بقراهم وأراضيهم قوة وتماسكاً ، ولا استطاعوا باستقرار حيواتهم وقدراتهم الموصولة طول العام على الشراء أن ينهضوا بالقرية ويصلحوا أوضاعها الاجتماعية ، ويعينوها على التطور ، ويرفعوا من مستوى المعيشة فيها ، ويواجهوا مع إخوتهم ، وأبناء عمومتهم شتى المشكلات التي تعرض للريف ، ولحاء التغيير داخل القرية ، ووفق نماذجها المألوفة ولم يأتها من خارج ذاتها ، ووفق نماذج لا عهد لها بها فتنجو من التردد والصراع الذي مزق الجهود وجعلها آلية لا تحمل مضموناً نفسياً واجتماعياً .

والذين يتخصصون في علم النفس الجنائي يعلمون من غير شك أن للجرائم التي تقع في الريف طبيعة خاصة في حوافرها ووسائلها وغاياتها ، وأن هذه الجرائم كان مبعثها الأول انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً شديداً ، وهو انخفاض لم يكن له مثل إلا في البلاد التي بلغت من التخلف الاقتصادي درجة كبيرة جداً . واحتفاظ الريف برواسب من تقاليد سابقة على الاستقرار الزراعي ، وبعضها رواسب قبلية يدل لا على ضعف سلطان الدولة ولكن على ضعف الرابطة بين الريف وبين الدولة

زماناً طويلاً ، فقد شهد الفلاح المصرى كيف كانت الدولة أجنبية عنه ، مسخرة له ، وشهد كيف كان الحكام وأشياعهم يتطفلون عليه . . شهد الضرائب التى كانت تقدر وفقاً لحاجه هؤلاء الحكام وممثلهم لا وفقاً للأرض التى يملكها والغلة التى تأتى بها ، بل كيف كانت تعجى أكثر من مرة فى العام الواحد ، وكيف كانت تعجمد مقاديرها على الرغم من التغير الذى يحدث فى رقعة الأرض التى تنسب إليه ، والأشجار والنخيلات التى تقوم فيها ، وكان يكبره على أن يدفع هذه الضريبة أضعافاً مضاعفة ، وعلى أرض لم تعد له وعلى شجر اجتث من الأرض اجتثاثاً . وهذا النظر هو الذى جعله يحتفظ فى بعض البيئات بالتأثر ، فلم يكن يؤمن بأن الدولة منه وله ، وأنها بهذا المفهوم تنوب عنه فى القصاص . وإذا كان هو ولىّ الدم فإن نيابتها عنه لا تغير من الواقع النفسى شيئاً إذا كان مقتنعاً بأنه الدولة . . ولكم احتفظ الوجدان الشعبى بهذه الحقيقة ووقف منها موقف الفلاح نفسه لا موقف الدولة الأجنبية . ونحن لا نستطيع أن ننسى تلك الملمحة التى تصور هذا الصراع التى عاشت فى قلب الريف منتصرة للشعب فى وجه السلطة التى لا شأن له بها ، ونعنى بهذه القصة « موال أدهم الشرقاوى » وهى تكاد تكون ملحمة شعبية كتلك الملاحم التى عبر بها الشعب المصرى عن وجدانه الجماعى ، وإن ألفت بعدها بزمان غير قصير ، وهذه القصة تجسم نموذجاً عاماً لم تستطع الحكومة الأجنبية أن تقاومه أو تتغلب عليه ، وتحدث عن شاب قال ثأره بنفسه وهى من أجل ذلك تمجده ولا تنقص صنيعه !

وقد مررنا في الفصل السابق احتفال المجتمع باللبنة الأولى وهي الأسرة ،
ذلك الاحتفال الذي يدرك أنها الأساس الأول الذي يقوم عليه الكيان
الاجتماعي كله ، وغرضنا لاهتمام المجتمع بتلك الأسرة المقدسة بين
الشريكين ، وبينهما وبين أبنائهما ثم بينهما وبين المجتمع بأسره ولسنا
نريد أن نعيد ما قلناه في ذلك الفصل ، وحسبنا أن نذكرها ما التفت إليه علم
النفوس الجثنائي أيضاً ، وهو الحرص على الشرف أو العرض وبخاصة عند المرأة ،
فإن المجتمع الريفي متشدد في هذه الناحية إلى أبعد حد ، والقرية المحدودة
تفرض على أهلها رقابة اجتماعية كرقابة الضمير على كل فرد . وهذه
الرقابة الاجتماعية تضبط أو تكاد سلوك جميع الأفراد ، وترسم لهم نموذجاً
اجتماعياً لا ينبغي عليهم أن ينحرفوا عنه بحال من الأحوال . وبعض المجتمعات
الريفية ، بل الأصح أن نقول إن أكثر المجتمعات الريفية ، تحكم على الفتاة
المنحرفة أو المرأة المنحرفة ولا تترك ذلك للقانون الوضعي ، فالعرف عندها
— كما سبق أن قلنا — أقوى من القانون المكتوب ، وأكثر تمكناً من النفسية
الريفية ، وهي النفسية التي لا يمكن أن تقنع بأن ينوب عنها في المحاكمة
والحكم جميعاً أحد كائناً من يكون . والشأن في هذا كالشأن في الأخذ بالتأثر ،
فلو أن المجتمع الريفي كان قد اقتنع بالعلاقة الإيجابية بينه وبين الدولة ،
استيقن من أنها منه وله وفيه ، لاستطاع أن يكل الحد إلى سلطة القانون
لوضعي . . وللمجتمع في الريف عادات تجسم هذا التزوع إلى الأخذ
بالتأثر والانتقام للعرض ، تجسمها الانصراف عن الاغتسال ، واعتزال
الناس أو عدم الاحتفال بدفن القتيل ، والرغبة عن نظافة الرداء ، وشال

العمامة وما إلى ذلك من الرموز التي تعبر في ذاتها عن انفعال معين ،
والتي تذكر في الوقت نفسه بهدف معين لا يستطيع صاحبه أن ينساه مهما
طال الزمن . . . ويظل المجتمع متيقظاً لذلك الهدف مطالباً بوقائه ، والفرد
الذي لا يقوم بتحقيقه ، يتعرض لعقد المجتمع ويختل التوازن بينهما ،
وكثيراً ما يرغم الفرد على الخروج من إطار مجتمعه إلى حين ، لا لكي
ينسى ذلك الهدف ولكن ليتربص بواتره ، أو بالفتاة أو المرأة المنحرفة
عن نموذجها الاجتماعي ، وينتهر الفرصة ليأخذ بثأره أو يغسل العار عن
نفسه وعن نفوس أهله .

ولسنا نستطيع أن نتحدث عن الفلاح المصري دون أن نشير إشارة
خفيفة إلى ملاحظة بعض علماء النفس الاجتماعي ، من شيوع وسائل
التخدير والفراز من الحياة ، ولقد كانت إلى عهد قريب ظاهرة واضحة
في الريف لم تجد فيها وسائل القمع ، وهذا الجنوح إلى السلبية في مواجهة
الحياة وإلى اصطناع التخدير لتحقيقها. إن دلت على شيء إنما تدل على
أن الفلاح ضعيف روحه المعنوي ، وعجز عن مقاومة ظروفه ، ووقع
فريسة سهلة لهذه الوسائل التي تغل عزيمته ، وتشل إرادته ، وتضعف
قدرته على الإنتاج . وكانت الحكومة الأجنبية عنه ، تنظر إليه على أنه
قوة بشرية إنتاجية فحسب ، ولا تفكر في نفسيته ولا تلقى بالها إلى الخواطر
العميقة ، والتجارب المريرة التي دفعته إلى هذا الاستسلام . وكان ينبغي
أن يصاحب التقنين والقمع علاج اجتماعي واقتصادي معاً ، يرفع معنويته
في نظر نفسه وفي نظر مجتمعه ، ويجعله إنساناً له كرامته الإنسانية ،

ولو كان قد تحقق له ذلك لانصرف عن تخدير نفسه ، وإضعاف صحته ، والقضاء على حيويته ، ولما اصطنع هذه الوسائل مسايرة منه لعدم الرضا بحاضره والفرار من واقعه إلى خيال مصطنع مكذوب . . . ولم يطل بصاحب الجلباب الأزرق - كما كان يسمى - الانتظار . فقد تغيرت الصورة التي أنكرها أجيالاً متتالية . . . تغيرت لأن البيئة المادية كان لا بد لها من تغيرها ، فإن فطرة الوطن المصرى التي تنزع إلى التوحد والاستقرار والتعاون ، استطاعت أن تتغلب على العوامل الخارجية والبواعث المصطنعة . وكان هذا التغير فى الوقت نفسه انتقاماً للتاريخ القومى الصحيح الذى لم يلتفت إليه الطغيان والتطفل والتفريق . وحكما من الأرض الطيبة على الذين قطعوا صلاتهم بها ، وظلوا مع ذلك يستنزفون خيراتها وينفقونها على ملاهيهم فى المدينة التي استقروا بها بل وفى خارج الحدود المصرية . وشهد الفلاح المصرى قبيل الثورة مظهراً رائعاً من مظاهر الصراع بين نموذجين اجتماعيين ، نموذج الذى رسبه تراثه وعُرفه المستخلص من فطرته ومن فطرة موطنه ونموذج أجنبي عنه يخالفه فى الصورة والمضمون جميعاً . . . فقد شهد الفلاح المصرى كيف هرع الإقطاعيون إلى أرضه الطيبة إبان الحرب الكبرى الثانية ، يوم دخلت إيطاليا الميدان إلى جانب حليفها ألمانيا ، ليحتموا من النسر المنفضة ، ومع أن الأرض السوداء قد وهبت القدرة على هضم جميع العناصر وتمثلها ، فإنها لم تستطع فى هذه المرة أن تقبل أولئك المتطفلين ، الذين عاشوا أعمارهم على حساب صاحب الجلباب الأزرق الابن الشرعى لهذه الأرض فأبت عليهم أن يزحموه ، وطردهم عن

صدرها إلى حيث كانوا في القصور المنيعة والأبراج المشيدة في جو متكلف ،
ويطعمون بغذاء صناعي مثلهم في ذلك مثل الطفل . : يحال بينه وبين
الرضاع وكانت لهم في الاستعلاء على الأرض ومفلحها مفارقات التقطها
الوجدان الشعبي وصورها في أدبه العابر الذي لو سجل لكان وثيقة نفسية
 واجتماعية تجلو غوامض الصراع بين نفسيتين مختلفتين ، وإطارين
ثقافيين متباينين .

وجاءت ثورة الوجدان الشعبي الذي أكد النماذج الاجتماعية المستخلصة
من خصائص الوطن المصري ومقومات الشعب المصري والتراث المصري . .
جاءت هذه الثورة تنفذ حكم الأرض الطيبة على ذلك الإقطاعي المتطفل
الذي لفظته الأرض الطيبة لتنفيذ حكم الحياة على الذين استعلوا على هذه
الحياة . ومن هنا كان قانون الإصلاح الزراعي يقظ الوجدان الشعبي
ممثلاً في الفلاح ، وكان حجر الزاوية في ثورة وجدانه ، لأنه ساير الواقع
المصري الأصيل المتطور ، ونفى عن الأبناء الشرعيين للأرض ، أولئك
النفر الذين استرقوهم واستحلوا كل ما تغل أيديهم ، وهو القانون الذي
حال بين الفرد أياً كان وبين التحكم في مصائر مواطنيه وإراداتهم كلما
انبسطت يده على رقعة الأرض . : وهو القانون الذي اعترف بالعمل الزراعي
وضبط الجزاء عليه ، ورخص له بالجهد النقابي لتنسيق مصالحه والتعبير عن
مشيئته وتدير أموره ، وهذا القانون يحقق أملاً استشره صاحب الجلباب
الأزرق منذ قرون وظل يجسمه في أدبه الشعبي ويعبر عنه في انتفاضاته
المتكررة على مدى التاريخ .

واستهدفت ثورة الوجدان الشعبي منذ اللحظة الأولى تحرير الأرض وإعادتها إلى أصحابها الحقيقيين وهم الفلاحون ، وشرعت توزعها عليهم فأصبح المفلح الأجير في التفاتيش والدوائر المصادرة والضياح والإقطاعيات حراً في أرضه سيداً في عمله غير تابع لفرد ، وغير مستذل لفرد ، وغير مورث لفرد . وأصبحت الشؤون العملية الزراعية من اختصاصه دون سواه لا يتلقى الأوامر عنها من رجل أو سيدة في حاضرة مصرية أو أوروبية بطريق مباشر أو عن طريق وسطاء وموظفين وهو بذلك يستكمل مقومات شخصيته الفردية والاجتماعية ، ويستطيع أن يبدىها كما فطرها الله لا كما أرادها المتطفلون المحتكرون القدماء . ويستطيع أن يعلن عن رأيه الصريح في الشؤون العامة والخاصة على السواء بريئاً من الخوف . خالصاً من الكناية والرمز . وهكذا يبدأ الفلاح المصري سيرة جديدة في ظاهرها وفي جوهرها أيضاً . ويستعيد النموذج الاجتماعي الذي يسير منطق بيئته ومجتمعه والذي يتفاعل مع حوافزه الأصلية وآماله المرجوة ويتحقق له اتصاله بالأرض على نحو لا يُكره عليه ولا يفزع منه ، ونحبه للتربة السوداء التي صاغت تراثه الثقافي كله . ويتحقق له فوق هذا التعاون بين أفراد والتكافل بين جماعاته . ويعيد ما انبت من علاقة بين الأرض والقرية والمدينة ويتسع وجدانه بحيث يشارك وجدان الوحدات الاجتماعية الأخرى التي تنظم الشعب المصري . ويقيم حياته سواء أكان في قرية أم في مدينته أو في موطنه وسواء تعلم أو تحول إلى الصناعة أو أحرز منصباً من المناصب وهو يستشعر الأخوة الكريمة بينه وبين مواطنيه على اختلاف منابهم وأعمالهم .

ويتخلص من تلك العقد النفسية التي كمنت في أطوائه عندما استعلى الآخرون عليه .

وإذا كان بعض الدارسين يقررون أن « المدرسة » كانت فيما مضى ملحقة بالمعبد أو الكنيسة أو المسجد ، ثم أصبحت بعد ذلك منظمة متفاعلة مع بيئتها ومجتمعها ، فاتصلت في الغرب بالصناعة والتجارة ، فإن اللامركزية الحقيقية سترد التعليم إلى البيئة الريفية وتجعل المدرسة ملحقة بالحقل ، متفاعلة معه مفيدة له . وهذه اللامركزية نفسها ستقضي بذاتها أو تخفف من هجرة أبناء الريف إلى المدن . . ستقضي أو تخفف من هجرة الباحثين عن عمل لجمود رقعة الأرض واكتظاظها بأهلها ، لأن الأرض ستتسع بالمشروعات الضخام كإقامة السد العالي ، ولأن قدرتها على الإنبات ستزداد . . ستقضي أو تخفف من الهجرة المنتظمة بفعل التعليم فتفيد القرية من المتعلمين ويأتيها الإصلاح من داخلها لا من خارجها ويتم على يد أبنائها لا على يد غيرهم ووفق نموذج اجتماعي مستخلص من واقع الحياة في القرية نفسها . . وعندما تتم المشاركة الوجدانية بين النموذج الاجتماعي في بيئة الفلاح والنموذج الشعبي العام ، وتعود إلى المجتمعات الخاصة وظائفها الإيجابية ويتحقق لها الارتباط الذي تمليه الحياة الجماعية الصحيحة فإن كثيراً من العادات والتقاليد التي لم تعد تلائم التطور سيختفي من التراث الثقافي للفلاح المصري في شتى أقاليمه . وليس من شك في أن اطمئنانه إلى أن الدولة قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه سيجعله يركن إلى قصاص الهيئة الاجتماعية ممثلة في سلطة القانون لأن وجدانه الخاص قد

أصبح جزءاً مكملًا للوجدان القوي العام ، ولأن إرادته الخاصة تمتد في
إرادة الدولة ، فإذا نابت عنه في القصاص فليس معنى ذلك أنها غيره ،
كما كان الشأن في الماضي ، ولكن المعنى أنها تمثله وأن ولا يته للدم هي
بعينها ولايتها . . ولن يحتاج صاحب الجلباب الأزرق إلى أن ينعت بهذه
التسمية فالأمر تقسيم عمل لا اختلاف درجة ولتنتظر من إقباله على الحياة
وقدرته على مسايرة التطور ومعاونته في الخدمة العامة ، أن تتغير نبرته من
الأسى القديم . إلى البهجة وأن ينفض عن نفسه ذلك الاستسلام لما تأتى
به الظروف والفرار من الواقع بوسائل مصطنعة ، والإفادة. من التعليم في
رفع مستوى معيشته . . لن يكون الفلاح المصرى رقماً من الأرقام أو شبحاً
من الأشباح . . لقد استكمل مقومات شخصيته الكريمة على نفسه وعلى
مجتمعه .

أسوار المدينة

ثلاثة أجيال فقط تصوّر تحولا خطيراً من حياة المدينة ، وتكشف عن مُعدّل التغير الذي تزداد سرعته إلى حد غير ملحوظ ، ذلك لأن صورة المدينة عند الجيل الأول تكاد تكون هي الصورة التي كانت عليها إبان تاريخها الطويل ، فقد كانت أولاً وقبل كل شيء قاعدة عسكرية قائمة برأسها مستقلّ فيها أهلوها استقلالاً ذاتياً ، بكل ما تحمل كلمة الاستقلال من معنى ، اللهم إلا أن تعتمد على مساحة مناسبة من الأرض الزراعية تمدّها بما تحتاج إليه من غذاء كما تعتمد ، شأنها في ذلك شأن المجتمعات البشرية الأخرى ، على ضرب من الاتصال ، المنتظم وغير المنتظم ، بينها وبين غيرها من المدن والأقاليم ، لتحصل بذلك على السلع المصنوعة والمواد الأولية التي لا توجد فيما جاورها من الأرض . وأول ظاهرة اتسمت بها في تلك الفترة الطويلة من تاريخها ، انحصارها بين سور يحيط بها من جميع أقطارها ، تتخلله في مواقع بذاتها أبواب ضخام تفتح عند الفجر وتغلق عندما يسدل الليل ستاره على الناس والكائنات ، وعلى هذا السور أبراج للمراقبة ، ووراء الأبواب حرس ، وبالقرب من هذا كله قطائع الجند تُحشد عند كل إشارة حماية للمدينة وساكنيها من هجوم عدو ، أو تفحّم قطاع طريق ، وأبواب المدينة تغلق حتى في النهار عندما ينزل بالناس وباء يحاولون مدافعتهم عن مدينتهم . . وكانت المدينة تنقسم على

أساس إقطاعي ومهني ، فقد كانت حاراتها عبارة عن أسر أصهر بعضها إلى بعض وألقوا بذلك مجتمعاً متجانساً مستقلاً ، وكانت هذه الأسر في أغلب الأحيان يجمعها نسب واحد أو وفدت إلى المدينة من كان واحداً ، وعُرفت بعض الأحياء بأسماء الأقاليم التي نرح منها ساكنوها ، أو بأسماء الأب الذي انحدرت منه تلك الأسر ، وكانت لكل حارة أبواب تُغلق على مجموع دورها ليأمن أهلها من طوارق الليل ، فازدادت بذلك الحارات استقلالاً ، ولعل شيخ الحارة الذي فقد وظيفته الاجتماعية السابقة الآن عضو أثري يدل على ذلك الطور من تاريخ المدينة . وقد تتألف الحارات أيضاً من أسر أصهر بعضها إلى بعض كالأسر الأولى ، ولكنها تتسم بطابع آخر غير الطابع العائلي ، وهو الطابع المهني ، ونحن نعلم أن أكثر المهن كانت هي الأخرى ، إقطاعية القيوم يتوارثها أصحابها الأبناء عن الآباء ، وعُرفت أحياء بأسماء المهن التي غلبت على ساكنيها وأكسبتها ضرباً من التخصص في العمل الذي اشتهرت به في المدينة ، بل وفي غيرها من المدن .

ويعصور الأدب الشعبي هذا الاستقلال الذاتي للمدينة ، فإن الملاحم التي كانت غذاء أهلها ، كما كانت غذاء أبناء القرى والكفور ، لا ترسم وحدة قومية عامة ، ولا تكاد تعترف بحكومة مركزية تربط عناصر الكيان الاجتماعي العام وتنسق وسائل الإنتاج والخدمات فيه وله ، وإنما ترسم مدناً متناثرة مستقلة ، وتبدأ بصورتها من الخارج ، وتصف مظهر أسوارها وأبراجها وأبوابها وحراسها ثم تصف بعد ذلك مظهرها من الداخل أحياء

مفرقة ، وحارات مستقلة . ، تجمعها قصبة الحكم المحلى والسوق العامة ، ولا يمنع ذلك من أن تكون لكل حارة أوحى قصبة خاصة وسوق خاصة أيضاً . وإذا كان للحكام الكبار مسجد جامع رسمى ، فللحارات والأحياء مساجدها وزواياها ، تقيم فيها الشعائر ، ويلتقى فيها الراشدون فى المواسم وعندما يحزم أمر من الأمور يحتاج إلى رأى جماعى . ومع هذا كله عرفت كل مدينة فى الوطن المصرى بصفات بارزة فيها تُقْبَس من معلم ظاهر ، أو أثر شاخص ، أو خصلة تغلب فى نظر المدن الأخرى على سكان المدينة . وكانت قصور الإقطاعيين من الحكام ، وأصهارهم تنهض بالقرب من قصبة الحكم المركزى الذى يتخذهُ السلطان المملوكى أو الباشا التركى ، وكانت هذه القصور تحكى مظهر المدينة نفسها ، لأنها لم تكن داراً بالمعنى الصحيح أعدت لسكن أسرة واحدة من الأسر ، مهما كان مقامها الاجتماعى ، فإنها تتألف من أفراد يعدون على الأصابع ، وإنما كانت أسواراً مرتفعة ضخمة ، وأبواباً ثقيلة محكمة ، وحراساً فى مواضع من هذا السوراً ، وبناء موزعاً تتوسطه رحبة متسعة ، وغرفاً كثيرة لعشيرة الحاكم وحاشيته وجنده وخدمه ومن يحسبون عليه ، وكثرة من يعولم تشير بذاتها على مقامه الاجتماعى إشارة المساحة المتسعة ، والبناية المعقدة التى تألف منها قصره ، كما أن هذه الكثرة هى التى تكسبه أيضاً ذلك المقام الاجتماعى ، لأنها وسيلته فى منافسة غيره ، والتغلب على مناظريه ، والقدرة على جباية المال غضباً من سكان المدينة الذين يحترفون التجارة ، ويمتهنون الصناعة ومن سكان الريف . . وكان هؤلاء يقتسمون المدينة . فما بينهم

مناطق نفوذ ، كما يقتسمون القطر كله سواء بسواء . وأخبار الحكم .
وتغير الدول ، والأوامر والنواهي ذات الطابع الرسمي ، كانت تنشر على
الملا بوساطة مناد يصحبه ممثلون للحكومة يجوس خلال الأحياء والحارات ،
واستقرت هذه المنشورات الرسمية الصوتية على تقليد معين في صياغة
العبارة أو تسجيلها ، بحيث تسهل المناذاة بها ، وتخف مؤثراتها على الأذن
التي تتلقاها ، وحتى يستطيع حفظها أياماً بعد ذلك ، وألف الناس في
المدينة هذا المنظر ، واحترف أفراد مهنة المناذاة غير الرسمية عندما يفقد
شيء أو يضل غلام ويريد أصحابه معاونة الأحياء والحارات المستقلة الأخرى
في العثور عليه . وكان الخوف هو الشعور الأساسي الذي لا يزايل النفوس
داخل أسوار المدينة وفي طرقاتها ، وعند أرباضها أيضاً ، ولا زلنا نسمع
من الجيل الأول الذي لا يزال أفراد منه على قيد الحياة ، قصص ذلك
الطور من التاريخ القديم ، وكيف كانت الحفارة إقطاعية الطابع لها
« مقدم » أو متعهد يجمع الحفراء للمحافظة في القاهرة ، ويتفاهم على
أجورهم ، والمحافظة لأشأنها معهم إلا أن يقوموا بما اتفقت عليه مع
المقدم ! !

وليس أدل على استقلال المدن على هذا النحو ، واستقلال الأحياء
والحارات بعضها عن بعض من مظهر الموالد الإقليمية الكبرى ، عندما
يجتمع سكان مدن مختلفة في صعيد واحد ، وتتخذ كل مدينة موقعاً معيناً
من ساحة المولد تنصب فيه خيامها ، ويجتمع فيه أفرادها ، ومن الموالد
التي تقام لواحد من أهل البيت وأولياء الله الصالحين في المدينة نفسها ،

واجتماع الناس على هذه الصورة ، وما يشتجر بين ممثلى مدينة ومدينة أخرى من عراق ، ومما يقوم بينهم من مباريات رياضية على النحو القديم ، كالتحطيب والبرجاس وما يدب بين ممثلى الأحياء والحارات المختلفة من منازعات ، وما يرسب فى نفوس أولئك وهؤلاء من ثارات وحقوق تظل مكبوتة إلى الموسم التالى ، واستتبع ذلك تناظر عنيف بين الأشياخ والفتوات الذين يقومون على كل قسم من أقسام المدينة ، وتجاوزهم إلى السكان جميعاً ، وبدأ هذا التناظر فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فى الملبس والسمت والمطية ، وعند الأفراح والمآتم وحفلات الختان ، وما إليها ، واشتدت المنافسة حتى خرجت عن كل حد معقول ، ودفعت إلى السرف والمباهاة ، وقضت فى كثير من الأحيان على أموال أصحابها جملة ، وأضافت شهرة ذائعة الصوت فى نجارة رائجة ومهنة دقيقة .

كان هذا هو النموذج الاجتماعى العام للمدينة الذى يتزع بأفرادها إلى محاكاته . . كل فى حيه وحارته ، وهو نموذج يباين طبيعة الحياة فى الوطن المصرى ، ويضيق إطار الوجدان القومى ، ويجعله يقوم على عصبية أدنى إلى القبلية منها إلى القومية او الوطنية ، ولكن الوجدان الشعبى المصرى ، كثيراً ما كان ينتصر ويحطم حواجز هذه العصبيات ويخرجها من قواقعها التى اعتصمت بها ، ويكون ذلك فى الملمات الجسام وعند توقع الخطر الذى يؤثر على حياة الجميع ، فقد هبت المدينة مراراً فى وجه الإقطاع والطغيان ، وتناست الأسوار التى تحيط بها من كل جانب والتى استشعرت أنها قد تكون أداة حصار ، كما تكون أداة أمن ، واتصلت بالمدن الأخرى

وارتفعت الحواجز المضروبة بينها وبين القرى والكفور ، وتآلف من هذه الزّمر شعب واحد متجانس ، كما فطرته الحياة . . . وفي كل مرة ينبض قلبه الواحد ينتصر على عدوه الواحد ، وينجح في تغيير ظروفه إلى حين . وكان المفروض أن تتطور المدن تطوراً طبيعياً على يد أهلها ، فكلما زاد السكان على طاقة حى اتصلوا بحى آخر ، وكلما تكاثف السكان في مدينة ، أبعادوا أسوارها قليلاً أو تجاوزوها إلى ما وراءها وأقاموا غيرها ، وحطموها أو تركوها عضواً أثرياً يدل على طور من أطوارها .. وكان ذلك يحدث في تاريخ المدن فتزدهر أو تخمل ، وتكبر أو تصغر ، وقد تتحول القرية إلى مدينة .

ولكن حملة نابليون عندما دخلت القاهرة ، حطمت أبواب الأحياء والحارات ، وُعدّ ذلك مظهراً من مظاهر الإصلاح ، وسبباً من أسباب التقدم ، ولكنه من الناحية الاجتماعية كان عملاً مفاجئاً لا يلائم نفسية السكان ، ولا يحكى نموذجهم الذى درجوا عليه ، ولو أنه جاء استجابة لئزعة الوجدان القومى إلى الاتحاد والتعاون بين سكان المدينة جميعاً على نحو أقوى مما كان ، لما استحدثت تلك الحيرة التى وقع الأهليون فيها بين حاضر لم يألوه ، وماض آمنوا معه مفاجآت الزمن وطوارق الأحداث .

وعلى الرغم من هذا كله أفاد الوجدان الشعبى من تقدم وسائل المواصلات . . وكان ذلك التقدم متابعاً لمنطق النيل فى جمع ما تفرق من الأقاليم والمدن ، وجاءت السكك الحديدية ، وتابعت النيل فى سيره تقريباً من الجنوب إلى الشمال واتخذت أسلوبه فى استحداث شبكة تنظم ما بين

فرعيه ، ونهضت بذلك مدن وخملت مدن أخرى تجاوزتها السكك الحديدية ، ولكنها في الوقت نفسه استحدثت تأثيراً آخر بفعل الطابع المركزى الذى اصطنعه الحكام وقت ذاك ونتج عنه ، أن اختلفت صور الحياة فى مدن قليلة جداً عنها فى سائرهما ، وأصبحت القاهرة والإسكندرية وغيرهما من العواصم الكبرى ، تبدو مغايرة تمام المغايرة فى الصورة العامة ، وفى مظهر الحياة ، وفى عدد السكان ، بل وفى النموذج الاجتماعى فى الغالب الأعم لما تنقسم به عشرات المدن فى الوجهين البحرى والقبلى ، وتركزت الأضواء على القاهرة والإسكندرية بصفة خاصة ، وزادت الجاذبية ، أو المغناطيسية الذاتية لكل منهما ، وأصبحت الإقامة فيهما تبدو وكأنها امتياز اجتماعى للمقيمين فيهما ، لأنهما قصبة الحكم فى الشتاء والصيف وما بينهما ، وساعد الاستعمار على ذلك كى يستكمل القطيعة بين عناصر المجتمع المصرى ، وتوسل بالتعليم لتحقيق هذه الغاية. وقد سبق أن ذكرنا شاهد ذلك فى الفصل السابق ، عندما تحدثنا عن بعض بواعث الهجرة من الريف إلى المدينة ، ولذلك رأينا أن التعليم الذى كان يستهدف تخريج الموظفين المرعوسين للإنجليز ، الوجهين لجميع المرافق أعان على هذه النتيجة ، حتى أصبح أقصى ما يتمناه المتخرج من المدارس أن يستقر به المقام فى القاهرة أو الإسكندرية ، وفى القاهرة أكثر ، ويألم غاية الألم إذا لم يعين فيها أو إذا نقل منها ، وكان له العذر فى هذا الشعور لأن القاهرة والإسكندرية أصبحتا تستوعبان جميع ألوان النشاط تقريباً ، وتصب فيهما أكثر الأموال ، وينفق عليهما أكثر مما ينفق على القطر كله !

ونحن لا ننكر أفراداً بأعيانهم نهضوا ببعض عواصم الأقاليم والمراكز ،
وشقوا فيها الطرق المتسعة ، وأقاموا المنتزهات ، وردموا الترع المتوسطة .
وشيدوا دوراً جديدة للحكومة المحلية ومدارس ومستشفيات ، ولكنه عمل
أفراد لم توح به سياسة عامة وهو لا يزال ينسب إلى القلة التي قامت به ،
ولعل الناس في هذه المدن يؤرخون الأحداث بتلك المشروعات . . ونحن
لا ننكر كذلك ، أن البلديات المختلفة حاولت على قدر طاقتها المحدودة ،
وفي نطاق ميزانياتها المحدودة ، أن تستحدث ضرباً من التجديد في المدن ،
وأن هذه الضروب غيرت من الصورة الظاهرية ، ولكنها لم تنفذ إلى الطابع
العام . وكان هذا كله عملاً مظهرياً لا يقصد إلى الإصلاح في ذاته ،
ولا يركز على دراسات اجتماعية تتعمق الروح الجماعية في المدينة ، وتعتمد
على إحصائيات كاملة لجميع العناصر التي تقطعها ، وتوزع الخدمات
عليها بالقسط ، وتسشرف في الوقت نفسه مستقبل المدينة ، وتبنى
مشروعاتها على العدالة الاجتماعية والحساب الدقيق لظروف المستقبل .
وكانت الشوارع التي تمهد أو توسع ، والمنتزهات والميادين التي تقام ،
تتصل بالجانب الأرستقراطي من السكان ويركز الاهتمام على هذا الجانب ،
في حين تهمل الجوانب الأخرى ويكون العمل للشهرة والمفاخرة لا مجرد
الخدمة العامة . وأعجب من هذا كله أن تهمل أحياء الوطنيين ويعنى
بأحياء الأجانب ، ومن هنا رأينا مدناً تنقسم إلى حيّ العرب وحيّ الأفرنج !
وانعكست هذه الظاهرة على القاهرة نفسها ، والجبل الثاني قد لاحظها
تمام الملاحظة ، فقد كان يكفي أن يتخير واحد من الحكام موضعاً يقيم

فيه داره فى ربض من الأرباض بظاهر المدينة ، حتى تشق الطرق إليه وأمامه ، وتقام المشروعات المختلفة لخدمة فرد واحد . . وكان الذى يسير على النيل يرى نفسه مضطراً لمفارقتة ، لأن حديقة فرد من الأفراد تمتد إليه ، وهو إذا وجد المصاييح تمتد مسافة معينة ثم تنقطع ، على الرغم من امتداد الحياة وقيام المساكن بعد ذلك ، كان من اليسير عليه أن يدرك الباعث على التوقف الذى يشير إليه بيت من بيوت الحكام وأشياجهم وهكذا . وكما كانت القاهرة مجموعة من مدن وقرى التحمت واتصلت حتى كونت هذه المدينة العظيمة ، فكذلك نشأت أحياء جديدة ، بُذل فى تنسيقها ورعايتها ما لم يبذل جزء يسير منه للأحياء القديمة ، ولعل من أبرز الشواهد على تغير الصورة لبقعة من البقاع اسم « زمالك » ، فإن هذا الاسم يدل الآن على حى معروف من الأحياء الجديدة التى تزهو بها القاهرة الحديثة . . أتعلم معنى هذا الاسم ؟ . . إن معناه « الأكواخ » ، ولا بد أنها كانت موجودة فى هذه البقعة قبل ذلك ثم نقل أصحابها أو أجعلوا إلى مسافة بعيدة ناحية الغرب ، وقامت على أنقاض أكواخهم قصور شاهقة وعمارات ضخام ، وبقي الاسم القديم الذى يشير إلى التاريخ القريب . . واستحدث الارتجال تأثيراً عميقاً فى حياة المدينة لأنه ضاعف أولاً من التفاوت الاجتماعى بين عناصرها ، وجعل مظهر هذا التفاوت يبدو شاخصاً مؤثراً على نفسية الفرد وعلى نفسية الجماعة على السواء ، ولم يحافظ على الطابع المصرى الذى نشأ ثمرة لطبيعة الأرض ، والجو وتقاليده المجتمع ، ولم يعد السوق الذى اتسمت به مدننا الشرقية كما كان ، ولم يتطور من

داخله ، ولكنه تحول إلى صورة أخرى مختلفة تمام الاختلاف . . صورة أجنبية في كل شيء ، وإن ألفها الجيل الثالث وغزاها وشارك في حياتها ، وهذه السوق هي التي كانت رمز المدينة ، فقد درجت الأجيال الماضية في لغتها اليومية أن يقول الفرد منهم ، « إنني ذاهب إلى المدينة » أى إلى السوق ، حيث الوكالات الكبيرة التي تعرض مختلف الصناعات والمهن والأدوات والأشياء كما أن اتخاذ كل مهنة حياً معيناً جعل سكان المدينة يبادرون إليه إذا احتاجوا ثمرة من ثمرات هذه المهنة ، وضاع التخصص في الزحام ، ولم تبق منه إلا آثار قليلة ، وتعرضت المدينة بفعل الاستعمار أيضاً إلى أن تغزوها منتجات الآلة الكبيرة ، فترنحت الصناعات الصغرى فيها ، وبدأت تنحسر عن الحياة بسرعة متزايدة ، وغير ذلك في مظهر الحياة ، واستحدث أنماطاً جديدة ، وأزياء جديدة ، وهي أنماط وأزياء واحدة الطابع يقوم الاختلاف بينها على اللون والمقياس ، ولكنه لا يقوم على القالب ، وبذلك اختفى الاختيار الشخصي من قوالب متعددة ، تصنع استجابة لمزاج خاص ، ورغبة خاصة ، واستتبع ذلك ضعف النقابية بمفهومها الوراثة القديم أو زوالها تقريباً ، فقد كان الفرد الذي يريد أن يتأهل لمهنة من المهن أو صناعة من الصناعات ، إما أن يرثها عن أبيه بملازمته له وتدريبه عليه ، وبذلك تتواصل حياة المهنة وتستمر أجيالاً متعاقبة ، وإما أن يلتحق بـ « أسطى » ، وهي بعينها كلمة « أستاذ » ويقوم منه مقام الابن أو الصبي ، ويظل يلزمه إلى أن يستكمل ثقافته العملية فيستقل بنفسه ويفتح دكاناً ، يصنع فيه أو يتجر ، على شاكلة معلمه .

تماماً ، ولأفراد كل مهنة أو تجارة شيخ أو نقيب ، يجمعهم ويعالج مشكلاتهم ، ويصلح ذات بينهم ، ويتحدث عن عمل للعاطل منهم ، ويدعو إلى معاونة من يتعرض لنائبة من الثواب أو من ينزل به إفلاس مفاجئ ، ولا تزال لبعض هذه الطوائف مراسيمها القديمة ، ولم أشياخهم ونقباؤهم وإن تراخى تعاونهم ، ورث تكافلهم تبعاً لتغير النموذج الاجتماعي والباحث يستطيع أن يعرف القهاوى الخاصة بكل منهم ، يلجأ إليها العاطل والمحتاج إلى العون والمشورة ، ويستطيع أن يعرف أيضاً الدكاكين التي يشتغل فيها بعض المتعطلين بأجور معروفة إلى أن يجدوا عملاً مناسباً .

* * *

وتغيرت الصورة تغيراً كاملاً ، بعدما تحولت الكتاتيب القديمة إلى مدارس وأنشئت مراحل متعددة للتعليم وأنواع مختلفة من المدارس المهنية الوسطى ، ورتبت هذه المدارس بحيث تجعل إحداها يتسم بما يشبه الامتياز الاجتماعي ، وتؤدي إلى ما بعدها من حلقات تكسب الذي يبلغها حقوقاً لا يحصل عليها ، غيره ؛ ولم تستطع المدارس المهنية أن تتابع بالضبط وظيفة الأسطى والمعلم في التدريب والتشغيل جميعاً ، وإن خلفت وعياً مهنيّاً من نوع آخر بين أفرادها فيما بعد ، وكان التعليم كله بمراحله وأنواعه ، يتركز في الحصول على الوظيفة . والحيل الماضى يذكر تلك الفقرة التي كتبت باللغات الثلاث : العربية والإنجليزية والفرنسية على الورقة التي تسجل فيها درجات التلاميذ

في مختلف الفترات من العام الدراسي ، والتي نصت على أنها بيان بالدرجات فقط ، وليست شهادة بالمعنى الصحيح الذي يجيز لحاملها التوظيف في الحكومة ، وكان الغرض من هذه الفقرة وأمثالها ، هو مجرد التفريق بين ذلك البيان وبين الشهادة التي يُعطاها التلميذ عند انتهاء مرحلة كاملة من المراحل ، ومن هنا أصبحت الشهادة غاية التعليم ، وأصبح الامتحان هو الجسر الموصّل إلى الشهادة فالوظيفة ، وانسلخت المدرسة تماماً عن المدينة بعامة ، وعن الحى بخاصة ، وظهر تأثير ذلك الانفصال واضطناع الأزياء المعينة عندما أُمم التعليم العام ، واندفعت إليه طبقات المدينة كلها ، وقضى بذلك على آخر أثر للصورة الاجتماعية القديمة في توارث المهن ، والاتصال بفرد يأخذ الصبي عليه المران والتجربة ، ويستعين به في الحصول على عمل أيضاً ، وانحصرت مهمة المدرسة من أجل الامتحان والشهادة في التلقين النظري ، والاتكاء على الحافظة وعدم الاهتمام إطلاقاً بعلاقة مواد الدراسة بالحياة ؛ ثم شهدت المدينة التي تتركز فيها المدارس ما شهدته الحياة في الجيل الماضي من تقلقل ، واستغل الشباب في العصبية والشيع وانفطرت صلته بالمدرسة وبالأسرة معاً ، ولم تعد المدرسة نائبة عن الأب في التعليم والتدريب والتشغيل ، وضاعت الصلة النفسية بين الأجيال وأصبحت تقوم على غير المودة المألوفة في الأسرة الواحدة . .

وكانت القهاوى تقوم بوظائف اجتماعية ، فهي ملتقى جيل من أبناء الحى أو من أهل المدينة ، يتشاورون في عملهم وينسقون خدماتهم ، ويلتقون بزملائهم وبعض زبائنهم ، ويزجون فراغهم في الوقت نفسه بعد

عمل النهار الطويل ، ويستمعون في كثير من الأحيان إلى الملاحم الشعبية*
التي تبعث ما كمن فيهم من غرائز الكفاح ، أو تُحيي من أطوائهم عصبية
ناثمة ، أو تفرغ شحنة شعور مكبوت ؛ ولم يكن الشباب يغشى هذه
القهاوى لأنها كانت مقصورة على الكهول ، وهى التي صاغت إلى حد
كبير العواطف المبثوثة في الملاحم الشعبية ، - كما قلنا في فصل سابق -
تتغنى الحب المتعقل الذي يحتفل بنموذج الحياة الزوجية ، وينكر كل
علاقة غيرها ؛ وظل الأمر كذلك حتى تزلزلت النماذج القديمة ، وحطمت
الحواجز النفسية التي كانت تحول بين الشباب وبين غشيان القهاوى..
حطمت تلك الحواجز كما حطمت أسوار المدن والأحياء والحارات ، ولم
تكن الحياة قد استعدت تماماً لهذا التغير السريع الذي لم ينشأ من الداخل ،
فلم تحكم علاقة المدرسة بالحى ولم تجعلها تنتظم أندية الشباب ، وتحرير
أفراد كثيرين عندهم طاقات مخترنة ويتزعمون إلى التسامى بعواطفهم ،
واجتذبتهم أندية مفروضة على نموذج أجنبي غربي ، أو نموذج شرقي لم تألفه
الحياة حتى في القرون الوسطى ، ونادى أولئك وهؤلاء باتحادات المدارس
العليا أو الأندية الرياضية ، أو.. . ولم يستشعر أحد من هذا الجيل أو ذاك
نزوع الحياة في نفسه إلى الخدمة العامة غير ذات الطابع الإقطاعي
المظهري ، وهى الخدمة التي تقصد لذاتها ، ولا تقصد لغاية أخرى وراءها
من لقب أو شهرة أو منصب.. . الخدمة الاجتماعية لكل ما تحمل هذه
الكلمة من معنى.. . الخدمة الاجتماعية التي لا تقوم على استعلاء طبقة
على طبقة أو فرد على فرد ، ولا يصحبها الإعلان والتصوير ، ولا تعتمد على

مجرد الإحسان بمفهومه القديم ، وإنما تعتمد على التكافل الواجب في مجتمع كريم على نفسه وعلى أفرادهِ .

وما نستطيع أن نترك أسوار المدينة القديمة وحدودها الجديدة ، دون أن نشير إلى حقيقة على جانب من الأهمية في مجتمعنا ، فإن المهن الدقيقة التي لا تزاك باقية ، والشهرة المتسعة التي اكتسبها أفراد بأعيانهم في المهن والخدمات ، حتى أصبحت لأسمائهم قيمة تجارية في ذاتها . . إن هذه المهن ينبغي أن نحرص عليها ، لا لأنها صناعة من الصناعات ، ولا لأننا نحرص على المحافظة على القديم ، ولكن لأنها كانت ولا تزال أدنى إلى الفن من الصناعة ، ولأنها تصوّر الروح المصري ، وكل ما تحتاج إليه هو أن تتسع نفوس العاملين فيها ، وألا يظل كما كان آباؤهم وأجدادهم يتصورون أن الرزق لا يحتاج إلى تجديد ، وأن يُغروا أبناءهم بالإقبال على هذه المهن والإفادة من سمعة آباؤهم اطراداً لسير الحياة ، وأن يعملوا على تحسين وسائلهم في الإنتاج والعمل والتوزيع ، وهم بذلك يخدمون أنفسهم ومجتمعهم ، ويجتذبون السائحين إلى بلادهم ، لا لكي يدهشوا ، ولكن لكي يعجبوا !

وتمت مظهر آخر من مظاهر التفريق في الكيان الاجتماعي ، هو عدم استيعاب البيت الذي يقيم فيه الفرد العادي لجميع نشاطه بعد الفراغ من عمله ، فاندفع إلى خارج بيته ، واتخذ هذا الاندفاع صوراً متعددة ، أظهرها ازدهام القهاوي التي أصبحت أندية ليلية للكحول ، والمناذر أو المناذر عند الميسورين والمقتدرين ، أما النساء فكان يقمن في الدور

ويتزاورن فيما بينهم ، وأصبح هناك أدبٌ يحكى مجتمع القهوة ومجتمع
المنذرة من ناحية ، وآخر يحكى مجتمع النساء فى الدور ؛ وغلب على الأول
الملاحم والقصص عند الأوساط ومن دونهم ، والأسمار والنوادر والأخبار
وبعض المعارف عند المتعلمين ومن إليهم ، وغلبت على الثانى حكايات
فيها عروق خرافية كثيرة ، « وفوازير » تقوم على الكناية والرمز . والمطلع
على هذه الأنواع الأدبية ، يستطيع أن يربتها على أساس الجنس ، أى
على أساس الأدب الخاص بالذكور ، والأدب الخاص بالإناث ، ثم
على أساس اجتماعى ، أى الأدب الخاص بالطبقات العليا وبعض
الوسطى ، والأدب الخاص بالذين أحرزوا حظاً من التعليم ، والذين
اعتمدوا على الحياة فى تحصيل الثقافة والمعرفة ، وهذا الأدب يحكى
النموذج العام الذى وجدناه فى الريف ، ولكن فى إطار أكثر صقلا ،
وهو يقوم بوظيفة مختلفة بعض الشيء عما كان يقوم به فى الريف ،
فالإذعان للقدر واحد عند الجميع ، والاستسلام لما يأتى به الغد واحد
عند أولئك وهؤلاء ، بيد أنه كان فى الريف ، تراثاً جماعياً ، أما فى المدينة
فقد تحول من إثارة انفعال خاص تتطلبه الحياة العملية للفرد وللجماعة ،
إلى تسلية خالصة تفرغ شحنة الشعور بالوهم ، وتصطنع فى سبيل ذلك
مشاهد شبه تمثيلية ، تجعل المتذوق لها يتصور أنها واقع مريح يرفعه إلى
حين من حاضره المكدود .

واليوم تتحطم الأسوار الإقطاعية القديمة التى كانت تعوق المدينة
عن النمو ، وتفرق بين أوصالها وجوارحها ، وهذا التحطيم لا يقوم على

رفع الأحجار وإزالة الأنقاض ، وإنما يقوم على توسيع المجال النفسى للأفراد والعشائر والأحياء والمشتغلين بمختلف الأعمال وشتى المهن ، ويتخذ النموذج الحقيقى الذى رسمته طبيعة البيئة المصرية ، وفطرة المصريين ، وهو النموذج الذى يقوم على التوحيد الكامل بين الريف والقرية والمدينة ، بحيث يؤلف الجميع كياناً اجتماعياً ، واضح القسمات والملامح ، تبرز شخصيته بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى ، وتظهر القرابة التى تبين عن وحدة الأصل بينه وبين أبناء عمومته الذين يؤلفون الشعوب العربية ، ومن ثم لم تعد الخدمات وفقاً على أفراد أو أحياء ، ولكنها حق الجميع فى الوطن المصرى كله ، وسوف يعيد هذا بطبيعة الحال ما انبت بين المنظمات الاجتماعية وبين سكان كل مدينة ، وهى الخدمات التى يحس المواطنون بحاجتهم إليها ، ويتزعمون من تلقاء أنفسهم إلى تحقيقها لأنفسهم ؛ ويختفى الكبت ويزول الخوف الذى دفع إلى إقامة الأسوار وإغلاق الأبواب على المدن والأحياء والحارات ، ودفع بعض الأفراد إلى حفر السرايب تحت الأرض للخروج منها أو الاختفاء فيها ، ودفع آخرين إلى بناء الجدران التموهية لإخفاء أمواله وراءها. وكم ضاعت كنوز ولم توظف ولم تفد منها الحياة شيئاً ، لا لأن اللصوص سرقوها ، ولا لأن الأحداث العامة تخطفتها ، ولكن لأن أصحابها أمعنوا فى إخفائها ، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد ، الحكايات الكثيرة عن القدور التى يُعثر عليها فجأة وفيها سكة الذهب والفضة ضربت فى عصر بيتنا وبينه قرون وقرون ، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة

وهى ، إخراج ما تحت البلاطة !

لكل مدينة حياتها وروحها الجماعى ، ولها مع ذلك وشائج قربى
تصلها بالوطن كله ، إنها جارية من جوارحه وجزء لا يتجزأ من كيانه ،
وتراثها من تراثه وأمجاده من أمجاده ، ولها إلى هذا كله حظها المعلوم من
الخدمات العامة والميزانية العامة ، والتخطيط القومى سيُعيد التوازن إلى أوصال
الوطن المصرى جميعاً . ولم يبق إلا أن تحس وجودها فى ذاتها ، وفى مجتمعها
العام ، وأن تستعيد نموذجها الاجتماعى ، المستخلص من واقع الحياة
المتطورة ، وأن تفيد من جميع عناصرها وأفرادها ، وأن تقيم أسباب العيش
فى ربوعها على أساس من الإنتاج المستغل لكل طاقاتها وقدراتها ، وعلى
أساس من التكافل والتعاون بين طبقاتها وأحيائها ، وأن يكون هذا كله
جهداً منسقاً غير مرتجل ، تدعو إليه الخدمة العامة فى ذاتها ، ولا يدعو
إليه تظاهر شخصى ، أو إعلان عن الذات ، أو رغبة ظاهرة أو خفية
فى تحقيق مغنم قريب . ويا حبذا لو انعكس تواصل الحياة بعد أن
حطمت الأسوار المصطنعة على متاحف إقليمية تحافظ على خصائص
الإقليم ، وتراثه وروائع النوابع من أفرادها ، وأن يكون ذلك فى المدينة ،
التي تقوم من الإقليم مقام القلب والعقل جميعاً .

الثورة الصناعية

... وشاعت في القرن التاسع عشر أنظارٌ تكتسني المظهر العلمي ،
وهي أنظار اقتنع بها ، وروّجها المفكرون الأوروبيون ، عندما التفتوا إلى
نموذج الحياة في واقعهم الغربي ، ومن واقع الأمم الشرقية التي بسطوا عليها
سلطانهم ، واتخذوها مورداً للمادة الخام لآلاتهم ، وسوقاً تمتص الإنتاج
المتزايد في مصانعهم . وهذه الأنظار ترسم التاريخ الإنساني على أنه مراحل
تطور ، أرقاها الطور الصناعي الذي بلغه المجتمع الغربي ، ومن ثم كانت
مصر أدناً منهم رقياً ، وأقل حضارة ، لأنها بلد زراعي . ولم يكتفوا بذلك ،
بل راح الذين يبررون الاستعباد الجماعي ، الذي يُسمى خطأ بالاستعمار ،
ويؤيدون سلطانه ، يتشبهون بأن مصر ستظل على حالها ذاك ، وأنها لن
تصعد إلى المرحلة التالية ، وهي مرحلة الصناعة ، لأن مقومات الصناعة
من الحديد ، ومن الفحم أو غيره من مواد الوقود ، لا وجود لها في هذا
الموطن . ولما قامت الحرب الكبرى الأولى ، وتوقفت حركة استيراد بعض
المنتجات الصناعية إلى حين ، نشطت مصر في بعض الصناعات ، ولكنها
لم تبلغ الشأوا الذي يغير أساس الحياة الاقتصادية في مصر . واتهم العقل
المصري تبعاً لذلك بأنه عقل زراعي يؤثر التأمل المستقر الهادئ ، ويتزع
إلى مجرد النظر والتساؤل ، ويغلب عليه منطق الصورة ، ويميل إلى الجدل
شبه الفلسفي ، ولا ينتهي في كل أولئك إلى رأى قاطع حاسم ، فيستسلم

لما يأتى به الغيب ، وهو عقل يناقض فى زعم هؤلاء المفكرين ، العقلية الغربية الحديثة التى تجاوزت أطوار الخرافة والغيبية ، وتوسلت بمنطق المادة ، واعتمدت على المشاهدة والتجربة ، ونزعت إلى ما يشبه الوجوب والحق فى النتائج التى تنهى إليها . وهذه العقلية الغربية فى بحثها المستمر عن المجهول ، وتطويقها للمادة ، واستنباطها للقوى الكامنة فيها ، واستغلال هذا كله فى ترقية الحياة ، ووسائل العيش ، لها الحق فى الاستعلاء على غيرها ، والتحكم فى غيرها .

ونسى أولئك هؤلاء أن نظرية العقول المتناقضة ، لا تستقيم مع فطرة الحياة الإنسانية المتكاملة ، وأنها تنسى ، أو تتناسى عن عمد ، التراث الثقافى الطويل ، الذى مرّت فيه الحضارات ، ومصر لها تراث حضارى طويل ، وفيها من الاستعداد للتطور ، ما ليس فى غيرها ، والعقل الإنسانى واحد ، وهو لا يختلف إلا باختلاف الظروف . والعلم القديم والحديث قيمة إنسانية ، وهو ليس كالعملة الاصطلاحية ، التى يقتصر تداولها على موضع بعينه ، وعلى فترة بعينها . . إنه قيمة لا وطن لها ، ومن ثمّ كان صنيع الاستعمار فى الاعتماد على الإيجاء والاستهواء ، مضللاً وظالماً عندما اتكأ على أن مصر بلد زراعى ، وسيظل كذلك أبداً الدهر ، وحبس الاستعمار علمه ، ومنع خبرته الفنية عن التصدير ، وتطلع العقل المصرى بما أُجبل عليه من نزوع ورغبة فى المعرفة ، إلى ذلك العلم الحديث ، وهتف بإنشاء الجامعة لتكون أولاً وقبل كل شيء ، مدينة فاضلة تنمو فيها شخصية الفرد ، ويتحرر عقله من رواسب الماضى ، وأكاذيب الاستعمار

ولتواصل فيها الأجيال على اصطناع المنهج العلمى ، وتهيئة السبيل لتخريج طائفة من أهل الخبرة الفنية ، يقومون على المرافق ، وينهضون بأسباب العيش ، ويزيدون من الإنتاج ، ويغيرون من صورة الحياة المرتكزة على اليد ، إلى صورة أخرى ، تركز على الآلة الجبارة ، وقد مرّ بنا ، أن الاستعمار الإنجليزى لم يسكت على هذه الوظيفة التى استشعرها المجتمع المصرى ، التى نزع إلى تحقيقها بإنشاء الجامعة ، فدعى إلى حركة مضادة ، مظهرها ديمقراطى ، وغايتها إيقاف التطور ، ووجه الانتباه إلى الكتابات لأنها أجدر بالاهتمام فى نظره . ولما انتصرت الحياة على هذا الجهد المصطنع ، حاول الاستعمار أن يحرف الجامعة عن مهمتها ، وأعانته فى ذلك قوى الرجعية الأخرى

وكان من الطبيعى أن يحرص الاستعمار على النماذج الاجتماعية التى بدأت تفقد وظائفها الإيجابية الفعالة ، وأن يقاوم الوظائف الجديدة التى تدفع إلى خلق أعضاء جديدة ، ومن ثم قاوم كل حركة تدعو إلى تحويل الفائض من رأس المال المصرى ، الموظف فى الزراعة ، إلى ميدان الصناعة والتجارة ، وقاوم كذلك تشجيع الأفراد والهيئات على الادخار ، وتوظيف المدخر فى المشروعات الإنتاجية الكبرى ، ورسب فى نفوس المصريين ما كان قد استقر فى أطوارها من « إتيقاق ما فى الحيب ، لياأتى ما فى الغيب » ؛ وكما زعم أن مصر بلد زراعى إلى أبد الآبدين ، فكذلك زعم أن العقلية المصرية لا تستطيع بحكم فطرتها وتراثها ، أن تقيم عملاً كبيراً معقداً ، وأنها عاجزة عن الأعمال المصرفية التى لا بد منها لتلك المشروعات .

وهزأت الحياة التي تسير دائماً أبداً في طريقها بهذا التضليل الإيجائي ،
ونجحت الدعوة إلى تحقيق حلم عربي في إنشاء مصرف وطني ، وأعان
على تحقيق هذه الدعوة « الوجدان الشعبي » الذي برز في ثورة عام ١٩١٩ .
ونتج عن إنشائه أن أثبتت العقلية المصرية قدرتها على الأعمال المصرفية ،
وما لبث أن توسع مجاله ، وأنشأ مشروعات كبيرة أخرى تستغل المادة
المصرية الحامة ، وتوظف المال المصري ، وتستخدم اليد المصرية ، وعلى
غرار هذه المشروعات ، أنشأت مؤسسات صناعية وتجارية أخرى ،
ولكن الكيان الاجتماعي الذي يقوم على الإقطاع ، جعل هذه الجهود
هي المنفذ للفائض الكثير من ثمرات الإقطاع الزراعي كما جعل قوام
بعض هذه الجهود ، احتكاريّاً في فئة قليلة من الناس ، وبقي سواد الشعب
بمعزل عنها في الغالب ، لأن السندات والأسهم كانت تستنفدها تقريباً
طبقة واحدة فحسب . وكثيراً ما اشتجر الخلاف بين رأس مال هذه
الطبقة ، وبين رأس المال غير المصري ، وكثيراً ما وقف الاستثمار ليفيد
من هذا الخلاف ، وتسترمال غير مصري وراء أفراد مصريين من هذه
الطبقة ، واصطنع الأعلام المصرية ، واشتغلت بعض المؤسسات غير
المصرية ، بأعمال لا تمت إلى وظائفها بسبب ، وتوسل الجميع بالسياسة ،
واستغلوها لقضاء مصالحهم البعيدة والقريبة على السواء ، وبلغ من سلطان
بعض الشركات أن بسطت يدها على مرافق الدولة مثلها في ذلك مثل
رأس الإقطاع في استغلال جميع الخدمات لتحقيق لباناته الخاصة !
وجاءت الثورة الصناعية الحقيقية عام ١٩٥٢ بقيم جديدة ، وأزالت

إلى الأبد الأوهام القديمة ، وبرأت الوجدان الشعبي من خرافة ، « مصر لمن غلب » ، فحررت الوطن المصري من التدخل الأجنبي في شئونه ، وردت موجة الاستعمار عن أراضيه ، ولم يكن هذا الاستعمار مجرد جيش محتل اعتصم آخر أمره وبتلك البقعة المصرية عند مجمع البحرين ، ولكنه كان استعماراً ، اقتصادياً ، ونفسياً ، وعقلياً ، ولذلك حرصت الثورة منذ اللحظة الأولى على تبرة المجتمع المصري من تحكم الاستعمار في حياته الاقتصادية ، بما كان يصطنع من وسائل ظاهرة وخفية ، وخلص مصر من أبشع صور الحصار ، الذي يغل الإرادة ، ويقف في وجه التقدم ، ويحول بين المواطنين وبين تنمية إنتاجهم ، وترقية مستوى العيش في بلادهم ، وهو الحصار الذي كان الاستعمار يضيقه على الخناق ليرغم المجتمع على الإذعان له أولاً ، والوقوف حيث شاء ثانياً ، والسير وراء موكبه ثالثاً ، وعمدت الثورة أيضاً إلى أن تطب للمجتمع المصري ، وتبرأه من الأدوية النفسية ، التي كانت قد استقرت في كيانه استقرار العلل المزمنة ، وهي أدواء " خيل الاستعمار لصنائه أنها خلأ فطرية ، لا ينبغي أن يشكو المجتمع منها ، لأن شكواه ستذهب مع الريح ، فكذلك فطرته الحياة ، وحددت طاقته ورسمت له نوع العمل ، وخطت أمامه الطريق الذي يسلكه ، ولكن إرادة الحياة والتروع إلى الصحة والتكامل جعلاً الثورة الصناعية تنظر إلى هذه الأدوية النفسية نظراً واقعياً ، فتشخصها ، وتعالجها وتعيد إلى المجتمع ثقته بنفسه ، وقدرته على العمل في كل مجال ، وحرية في اختيار الطريق الذي يسلكه ليلحق بالمجتمعات المتحضرة ،

وكان على مجتمعنا أن يعوّض ما فوّته الاستعمار والإقطاع ، وأن تكون سرعته في السير متزايدة ، وأما الاستعمارُ العقلي فقد تبدّد بعد أن زالت الغشاوة عن العيون ، ولم يبق إلا أن يصطنع منطق المادة على الاحتفاظ بمقومات حياته الروحية التي جعلته يقاوم ظروفًا لا قبل لشعب آخر بها ، وأن يتجه إلى استغلال نفسه ، والكشف عن المادة والطاقة في وطنه العريق . ونشط العقل المصري ، ولم يضيع لحظة واحدة في الحيرة ، ونأى بجانبه عن تلك الآفة القديمة التي اتسم بها المجتمع ، وأريد له ألا يتلخص منها ، وهي آفة الارتجال ، وكأنما كان العمل استجابة غريزية مؤقتة . . . استجابة غريزية لحفنة من الأفراد ، يعملون ما يعن لهم في لحظة ، ويُجندون القوة المادية والبشرية لتحقيق هذه الاستجابة الآلية المؤقتة . والارتجال هو الذي أفقد المجتمع لتوازنه ، وجعل خطواته لا يكافئ بعضها بعضا ، وهو الذي جعل المجتمع يتألف من خلايا يستقل بعضها عن بعض ، وتنمو في داخل الكيان الاجتماعي العام ، نموّ الأورام الخبيثة ، فلما أفاق المجتمع ونزع عن كاهله هذه الأورام ، لم يشأ أن يسير في الحياة على النحو القديم العشوائي ، وآثر أن يدرس جميع الإمكانيات وجميع التفاصيل ، ولذلك وضع خطة كاملة للعمل الجماعي تضع كلّ جارحة في موضعها ، وتوضح علاقتها بالجوارح الأخرى ، وتعيد إليها وظيفتها الإيجابية لمنفعتها ومنفعة الجماعة ، وكان التخطيط القومي ؛ الذي لا تند عنه واردة ولا شاردة ، والذي يقوم بمساحة تفصيلية للبيئة المادية ، وما فيها من عنصر وطاقة ، وللقوة البشرية الموجودة ، وكيف يُنفاد منها ، والتي ينبغي أن توجد للوفاء

بأسباب التطور الذى يركز على التصنيع .
وكأنما شاعت الحياة أن تسخر من منطق الاستعمار ، فتحققت
أركان الثورة الصناعية عندما بدأ العقل المصرى يكشف عن البيئة المادية
لموطنه العريق ، فعثر على الحديد الذى يقيم الصناعة الثقيلة ، وعثر عليه
بكميات تكفى حاجات مصر أجيالا وأجيالا ، ولم يُهمل هذا الكشف ،
ولم يستصغر شأنه ، أو يشغل بمجرد العثور عليه ، ولكنه يادر إلى اتخاذ
الخطوات العملية التى تطوعه لأغراض التصنيع ، ولم يجعل استغلاله وقفا
على أموال أفراد بأعيانهم ، كما كان الشأن فى الماضى ، ولكنه دعا الشعب
بأسره إلى النهوض به ، وخلق الفرص لأصحاب الدخول الصغيرة للاكتئاب فيه .
ولم ينس أن يهيئ الخبرة التى يتطلبها ، فدفع فريقاً من الشباب إلى التدريب على
مختلف الجهود التى تحتاج إليها هذه الصناعة العظيمة ، وزاوج بين كشفه
وبين كشف آخر هو الطاقة التى تحرك الآلات ، وتدير الأفران ، فاستغل
مساقط المياه عند خزان أسوان ، ولم يجعل هذا الاستغلال موضوعاً للجدل
والتناظر ، وتبديداً للقوى ، وإضعافاً للهمم ، كما حدث فى الجيل الماضى ،
ورسم خطة النهوض بمشروع لعله أعظم المشروعات العالمية من نوعه وهو
السد العالى ، لم يستهوله ، ولم يقل باستحالته ، وإنما قام بكل ما يتطلبه
المشروع من دراسات تفصيلية معقدة ، وأفاد من الخبرة الفنية فى كل
فرع من فروع ، ثم بدأ يشرع فى العمل لفوره ، ويقسمه إلى مراحل ،
ويهيئ له أسباب التمويل ، ويمهد له الطرق ، ويخطط المدن ، ولن تمضى
سنوات حتى يتحول إلى حقيقة مجسمة شاخصة .

وثورتنا الصناعية تستهدف غايتين أساسيتين ، تنتظمان معاً الموازنة بين عدد السكان المتزايدين ، وبين أسباب العيش الكريم ، وهاتان الغايتان هما ؛ أولاً تصنيع الريف المصرى ، وذلك بالاعتماد على الآلات فى الري والبذر والحصاد والنقل . وهذا التصنيع سيغير من غير شك فى الصورة الظاهرية للمجتمع الريفي ، وهو يضبط الحركة البشرية فى تنوع العمل بالوطن المصرى ، وعدم انحباسه فى الزراعة على النمط القديم ، ولن يستتبع بطالة زراعية كما توهم بعض الباحثين ، لأن الآلات فى ذاتها ستحتاج فى إقامتها ، وإدارتها وإصلاحها إلى أيد عاملة ، وكل ما فى الأمر أن يصبح جانب كبير من العمل فى الريف ، سواء أكان ذلك فى الإنتاج الزراعى أو الإنتاج الحيوانى عملاً فنياً ، يحتاج إلى قدرات معينة ومنوعة ، وبذلك يضيع إلى الأبد التفريق القديم بين العمل الصناعى الفنى ، وبين العمل الزراعى غير الفنى ، ويتبدد إلى غير رجعة ، ذلك الاستعلاء الذى جعل العاملين يتفاوتان درجة وطبقة ، وتصبح النقابات التى تنتظم المشتغلين بالزراعة ، حقيقة واقعة لا فكرة نظرية . . حقيقة واقعة تدعو إليها الحياة ، ويقتضيها نوع العمل ، وتتغير القرية تبعاً لهذا كله ، فلا تظل دروباً متعرجة بلا اتجاه ، ودوراً متلاصقة على هذا النمط ، وتحول إلى مدن صغيرة ، تصل إليها المياه المرشحة للتليفة ، والنور الكهربائى وتنتظم فيها وسائل الأمن والوقاية من الحريق ، وتستبدل لبنات الطين بالآجر والحجر والأسمنت ، ويستغنى العمال الزراعيون عن اختزان الوقود فوق أسطح دورهم ، وهو الذى يتعرض للحريق لأبسط سبب ،

فإذا شبت ريح أخذت النار والقرية من جميع أقطارها ، وذهبت بما فيها من طارف وتليد . ونشأت في هذه المدن الصغيرة جميع الخدمات التي نجدها في المدن الكبيرة ، وتحول نظامها المترنح بين الإقطاع القديم في صور العمد وأشياخ البلد ، إلى نظام مدني خالص ، وقامت المجالس القروية بوظائفها التي تناط بها حقيقة لا شكلا ، وتوثقت العلاقة بينها وبين المدن التي تكبرها ، وزالت الحواجز التي كانت تفرق بين الحياة في القرية والحياة في البندر . وهكذا تُستغل جميع الإمكانيات في الريف ، ويتضاعف إنتاجه ، ويرتفع مستوى الحياة فيه ، وتصبح القدرة الشرائية موجودة طوال العام لا في أوقات معينة تحددها المواسم ، ويتنوع العمل ثم تبدل الرواسب التي فقدت وظائفها ، ويستقر في النفوس مثلاً أن الماء المرشح النظيف ، هو بعينه ماء النيل ، ولم تذهب قطرة من مائه عبثاً لا يُفاد منها في سقيا الزرع ، والحيوان والإنسان ، وتتعاذل الجاذبية بين العواصم والقرى ، فلا يحدث ذلك الاجتذاب المصطنع إلى تلك العواصم ، وبخاصة إلى القاهرة ولا يجد المتعلم غضاضة من الإقامة في الريف .

والهدف الثاني الذي تستهدفه الثورة الصناعية ، هو خلق الصناعة الثقيلة ، وهي التي ستغير من صورة الحياة الظاهرية في الوطن كله ، فسوف تخلق مدناً جديدة ، تختلف عن المدن القديمة لأنها لم تحمل في تضاعيفها تلك الأنماط الكثيرة التي تحكى أطوار الحياة الطويلة على مدى التاريخ كما أن هذه الصناعة ستنشط وسائل الاتصال بين أقاليم المجتمع المصري وعناصره ، وتقضي بذلك على البقية الباقية من الأسوار المادية

والنفسية ، ولن تقتصر أسباب الاتصال على شبكة الخطوط الحديدية ، وما يصحبها من أسلاك البرق والتليفون ، ولكنها ستتجاوز ذلك ، إلى أنحاء متعددة في الوطن المصري ، بعضها ظل بعيداً إلى حد ما عن الاتصال ، وبعضها لم تستقر فيه الحياة ، ويتتبع ذلك إقامة شبكة كبيرة من الطرق التي تربط جميع الأجزاء بعضها ببعض ، وسوف يتخذ النيل نفسه كوسيلة جديدة من وسائل الاتصال الحديث المستمر على مدى العام ، وستتقل الطاقة الكهربائية مسافات شاسعة ، وبأسعار منخفضة ، وستتجاوز العمل الصناعي إلى الخدمة المنزلية بحيث يُفيد منها جميع أصحاب الدخول الصغيرة.. ويتبع عن هذا كله ، انقلاب هائل في الحياة الاجتماعية لا يغير الأنماط والأزياء فقط ، ولكنه يتغلغل في النفوس والعقول أيضاً ، ويثبت هذا الانقلاب في ذاته ، أن العقل المصري ، عنده استعداد فطري للتغير وملاءمة الظروف الجديدة ، وأن هذا العقل قادرٌ على اصطناع منطق المادة ، ومنهج المشاهدة والتجربة ، وأنه يستطيع أن يقوم بالخبرة المطلوبة — إذا تهيأت له أسباب الحصول عليها — في أحكام الصناعة وإقامة الآلة بل وتصميمها أيضاً .. وكما يغير التصنيع الزراعي من صورة القرية ، فكذلك يغير التصنيع الثقيل من صورة المدينة ، فيجتث تلك الدروب الضيقة التي لم تعد مسيرة لأسباب المواصلات الضخام ، وسيقضي على العمل اليدوي ، ويصبح معلماً من معالم تاريخنا الاقتصادي ، وتتحول بعض نماذج الدقيقة إلى جهد فني ، ولكن هذا التحول يجيء من حوافز مصرية أصيلة ، وبأيدي مصرية خالصة ، ولن يكون — كما كان قبل ذلك —

عملاً خارجياً ، لم نترع إليه نزعة نفسية أو ضرورة من ضرورات الحياة ، ولن تبصر العين وسائل النقل القديمة ، وتحل محلها الوسائل الجديدة ، وتنسجم صورة المدينة في دورها وأحيائها وأزياء سكانها ووسائل الاتصال في داخلها وفي خارجها . .

وهذا الاتجاه الذى تتجه إليه الثورة الصناعية ، غايته الاكتفاء الذاتى ، وهو ما يساير فطرة الشعب المصرى فى استقلال شخصيته الجماعية عن الشخصيات الجماعية الأخرى ، بيد أن هذا الاكتفاء الذاتى يتطلب عملاً موصولاً ، وهو لا يزال فى مرحلته الأولى ، ومن أجل ذلك كان على المجتمع المصرى أن يفيد من الخبرة الفنية حيثما تكون ، فيستقدمها ، أو يرسل البعث المصرية إلى مواطنها . والخبرة الفنية جهدٌ محايد لأن العلم الذى تتركز عليه قيمة محايدة فى ذاتها ، واستيرادها أو تحصيلها من هنا وهناك — لا يستتبع عند المجتمع الذى يعى ذاته ، ويحس وجوده ، ويقاوم التدخل — بسط سلطان معين على هذا المجتمع . . ولكى نبليغ الاكتفاء الذاتى فى الخبرة الفنية أيضاً ، كان لزاماً علينا أن نستعين بالمتخصصين ، وأن نتخيرهم بأنفسنا ، وأن نأخذ منهم ما نريد فقط ، ويبقى بعد ذلك أن نطور منظماتنا التعليمية ، وبخاصة فى مراحلها الأخيرة بحيث تصبح وثيقة الاتصال بالتصنيع الثقيل ، والإنتاج الكبير ، والخدمات الاجتماعية الشاملة ، وأن نخلصها من الاقتصار على المعرفة النظرية ، فقد أصبحت المعرفة وحدة متكاملة فى النظر والتطبيق ، وأن نبرى برامجها من التوجيه المفتعل الذى حاول بوساطته الاستعمار والإقطاع أن يغلا الفكر ، وأن

يحولاً بينه وبين النشاط الإيجابي لمصلحة الفرد ، ولمصلحة الجماعة . .
ومجتمعنا منذ اليوم يحتفل بالعمل على أنه سمة من سمات الحياة الإنسانية
أولاً ، وقيمة من قيمها العليا ثانياً ، ووسيلة من وسائل تحقيق الشخصية
الفردية والعامّة ثالثاً ، وهو بهذه الصورة يمثّل المتطفل الذي يعيش متبطلاً
على حساب العاملين ، والذي يقوم من الكيان الاجتماعي مقام الطفيليات
من الجسم ، يضعفها ويوهن من قدرتها على الحركة ، ويحول بينها وبين
النمو ، ويستحدث في الوقت نفسه نماذج شاذة ومتحللة تدافع عن البطالة
الاختيارية ، وتكسب نفسها حقاً غير مشروع في جهد الغير ، وتصور
مثلاً غريبة في التخلق والسلوك وتحيط نفسها بمراسيم وأوضاع ، وتدفع
الاستغلال الذي يقوم على الانتهازية ، وخلق فرص مصطنعة ، والاستعلاء
على الغير بلا مبرر مشروع ، ثم التحكم في إirادات الآخرين ، وتسخيرهم
لقضاء مصالحه وتحقيق غاياته . وهو يمتد الاستغلال لأنه يتجاوز الذي
يقوم به إلى غيره ، ولأنه يقضى على شخصيات الأفراد ، ويتدخل في
حياة الجماعة ، ويحاول بهذه القدرة التي تستوعب طاقاته وطاقات غيره ،
أن يحرف المجتمع عن غاياته ، وأن يضلّه عن طريقه ، ويثبت نماذج
اجتماعية لا تتطلبها التطور ، ويشيع ردائل النفاق والإمعية والتفريق ، في
الكيان الاجتماعي كله على أنها وسيلة محققة من وسائل النجاح الفردي . .
وسوف تقضى الثورة الصناعية على المتطفل والاستغلال جميعاً ، لأنها
تقدس العمل ، وهو قيوامها وروحها . ومن أجل ذلك صانت الثورة
العمل ، وأبرزت شخصيته في إطارها العام ، ثم حرصت على تمام الموازنة

بينه وبين رأس المال لأنها تسير منطق المجتمع المصرى فى التآزر والوحدة ، كما حرصت على الموازنة بين أنواعه المختلفة التى يقوم اختلافها على تقسيم الجهد ، وتخصص الفرد ، ووحدت بين الخبرة الفنية والخبرة الإدارية . . . إنها جميعاً خبرةٌ تريدها الحياة فى هذا الطور ، وهى جميعاً عملٌ كريم على أصحابه ، وعلى الذين يقومون بأعمال أخرى تختلف عنها نوعاً ، وكريم على المجتمع كله كرامة سائر الأعمال . . .

ويعتمد مجتمعنا تهيئاً للثورة الصناعية على ثلاثة أسس ، يقيم عليها كيانه ، وهذه الأسس الثلاثة هى : أولاً . الاشتراكية التى تؤمن بالتطور ، وتقيم وجودها على تكافل الطبقات والتقريب بينها ، والتى توازن بين الفرد وبين الجماعة ، وبين العمل وبين رأس المال ، وبين الجهد الفردى والجهد القومى مجسماً فى توجيهات الدولة وخاجاتها . . والثانى هو المعرفة التى تكبر من شأن العلم ، وتجعله قريب الموارد من جميع الأفراد وبخاصة فى مراحله الأولى ، وتصل بينه وبين الحياة الفردية والقومية ، وتربطه بالبيئة الخاصة والعامة ، وتحقق به شخصيات الأفراد بحيث لا يصبون فى قوالب مكرورة ، وتؤكد بوساطته قيم الحياة العليا فى الحق والخير والجمال ، وتعظم من شأن العمل ، كأعظم ما تصبو إليه نفوس الأفراد . أما الأساس الثالث فهو القانون الذى تتحقق به إرادة الهيئة الاجتماعية ، وتتوحد عناصرها ، وتتساوق خطواتها وتقضى بوساطته على التحلل والانحراف ، والخروج عن النموذج الذى يقره المجتمع أو يضبط به سلوك العناصر والأفراد . وهذا القانون الذى يثبت الحقوق ، ويحدد الواجبات ، ويجعل الحياة تتسم بالحرية

لا الإباحية ، وبالعزة لا التطفل ، وبالكرامة لا الاستغلال .
وهذه الثورة العاقلة ، التي تعبر عن اتجاه الحياة الاجتماعية في الوطن
المصري ، لن تقع فيما وقعت فيه الثورات الصناعية الأخرى ، لأنها تُفيد
من تجارب الحياة في سائر الأوطان ، فهي ليست ثورة مجتمع منعزل ،
وقد مرّ بك أن الوطن المصري يتصل اتصالاً مادياً ، وثقافياً بغيره من الأوطان
وأن الأمة المصرية ، كانت تقوم بإشباع ثقافتها الخاصة ، وتمثل الثقافات
الأجنبية عنها ، فتفيد من الصالح لكيانها ، وتلفظ ما لا يسيغه أو يفيد
هذا الكيان . ومن أجل ذلك حرصت على الاحتفاظ بخصائصها الثابتة ،
وأدخلت في حسابها العنصر التاريخي ، والفترة الحاضرة ، والمستقبل الذي
تستشرف إليه ، كما حرصت على دراسة الثورات الصناعية التي سبقت ،
وما عرّضت له مجتمعاتها من تذبذب بين نماذج اجتماعية متباينة ، فأخذت
مضمون العلم الموضوعي ، ولم تر بأساً في اصطناع منهجه ، والإفادة من
ثمرات تطبيقه ، وحافظت في الوقت نفسه على ملامحها الخاصة ، وواصلت
القيام برسالتها الحضارية في هذا الموقع الفريد الذي استقرت فيه مصر منذ
آلاف السنين ، وهي تعمل جاهدة على تطوير النموذج الاجتماعي من
الداخل ، وتعديل وظائفه بحيث يحتفظ المجتمع في كيانه العام ، وفي العناصر
التي يتألف منها بانسجامه وترابطه واتساق حركته ، ويستتبع ذلك بطبيعة
الحال النظر الواقعي إلى المجتمع ، الذي لا يطبق عليه نماذج أجنبية أو
عتيقة . . أيا كان مصدرها من اليمين أو اليسار ، وأيا كان أصلها الذي
لا يمت إلى التراث القومي ، والثقافة القومية ، والعرف الاجتماعي بسبب

قريب أو بعيد ، والمزاوجة بين القيم الروحية وبين العمل المتخصص في تطويع المادة ، يجعل الحياة متكاملة ، ويجعل الجهد ذا قيمة في نفسه ، ويبرؤه من مظهر الرتابة ، ويخلصه من طغيان الآلة على الإنسان طغيانا يُسوّدها عليه ، ويحكمها فيه ، ومن ثم عنيت الثورة الصناعية بالخدمة الاجتماعية ، وتوسعت فيها ، وجعلتها حقاً معلوما لكل فرد في كل سن ، واحتفلت بالفراغ احتفالاً بالعمل ، تنويعاً لضروب النشاط ، وترويحاً عن النفس واستغلالاً للزمن . .

ولكن هذه الثورة تتطلب من الأفراد والجماعات ، أن يُدركوا إطارها ومضمونها وتأثيرها أيضاً ، وأن يعملوا عن وعي في أن يلائموا بين نفوسهم وبينها ، ذلك لأن الإنتاج الصناعي الكبير معناه اصطناع قوى هائلة لا تعدلها قوى الجماعات مهما بلغ عددها ، وحسبك أن تعلم أن الآلة الواحدة ، قد يكون فيها من القوى ما يزيد على ما كان في جيش نابليون ، وحسبك أن تعلم كذلك أن المساحة ستضيق بالقياس إلى سرعة الاتصال . . الاتصال المادى والفكرى ، بنقل الأجسام والأصوات والصور والأشياء ، وأن تعلم فوق هذا وذاك ، أن اللحظة الواحدة ستتسع حتى تصبح لحظة عالمية ، وإذا كانت الفنون فيما مضى قد انصرفت إلى إمتاع الخاصة ، وكانت تتطلب من الأفراد ، أن يتدربوا على وسائلها بأنفسهم ، أو أن يتذوقوا روائعها بمشقة وكدّ وارتحال ، فقد أصبحت اليوم كأسلاك النور ، وأنابيب المياه سواء بسواء ، ولذلك كان على الأفراد وعلى الجماعات الصغرى ، والمنظمات الاجتماعية المختلفة أن تتعرف إلى الطريق ، وإلى

الهدف ، وأن تنظم خطواتها مع معدل السرعة المتزايدة في التطور الاجتماعي ، وأن يستجيبوا إلى توجيهات الهيئة الاجتماعية التي أصبحت منهم ولهم ، والتي تعبر عن إرادة الحياة فيهم ، وتجسم مثلهم العليا الصحيحة ، وتميز بين الواقع الحي وبين التخيل الوهمي ، الذي كان سمة النموذج الإقطاعي القديم .

وسوف يصبح الإنتاج الكبير من غير شك ، استهلاكاً كبيراً أيضاً يجعل ارتفاع مستوى المعيشة متساوياً في كل إقليم ، وفي كل طبقة ، ويقرب بين عناصر المجتمع ، ومن ثم كانت القدرة الشرائية أساسية عند الجميع ، وليس من غرضي أن أخوض في ألبانبات الاقتصادى : ولكن أشير فقط إلى نتائج التطور في مجتمعتنا ، وما أكثر الكماليات التي ستصبح ضرورات حتى عند الطبقات الدنيا والوسطى ، وكلما اتسعت دائرة الضرورات كان ذلك دليلاً على أن مستوى المعيشة يأخذ في الارتفاع ، والجليل الماضي يذكر . كيف كان الفوتوغراف والسينما ثم الراديو فيما بعد من الأدوات الكمالية ثم أصبح على الأيام ضرورة لا يستغنى عنها في بيت من البيوت ، أو منظمة من المنظمات .

وبهذه المزاوجة بين الخصائص الثابتة لمجتمعتنا وبين مقتضيات ثورته الصناعية ، ترسخ نماذجها الخالدة ذوات الوظائف المتجددة ، وتنمحي النماذج الأجنبية والمصطنعة ، وتتبدد القيم التي جاءت إليه على كره منه ، وتوقفت على سطحه ولم تبلغ وجدانه ، ويتحقق التوحد الذي تنزع إليه البيئة المادية والتاريخ الموصول على نحول يسبق له مثل ، وتتقنى كل

شبهة في الرجعة والانتكاس ويستقبل المجتمع الغدّ المرجو بوجهه لا بظهره ..
يستقبله وهو واثق من الطريق آمن على كيانه ، مسدّد الخطى إلى غاية
يراه ، ويحمل مسئوليته التي وضعت على كواهل كجمتمع حرّ لا سيادة
لأحد عليه ، غير ما يدفعه إليه وجدانه القويّ السليم .

وتتطلب معرفته بذاته أن يقوم بتعبئة قواه ، وتدعيم تطوره بالقيم
المستخلصة من الدين والعرف والتراث الطويل ، ومن العلم ومن الفن لكي
تحتفظ صورته الاجتماعية بمضمونها الإنساني المتميز في كل حين ،
وتخليص منظماته من الإجراءات العقيمة المعقدة التي كانت ثمرة من
ثمرات الخوف وسوء الظن وأن تبرّتها من الروتين المركب الذي تضيع فيه
الجهود ، وتنطمس التبعات ، وأن يحلّ في محل هذا كله تقليد جديد
قوامه التعاون ، واحترام الشخصية ، واحتمال التبعية الخاصة والعامة على
السواء ، وليفطن كل امرئ منا إلى مكانه من مجتمعه الخاص ومجتمعه
العام ، وأنه بجهده وتعبيره يحقق ذاته الفردية ، وذاته الجماعية أيضا ، وأن
عمله لنفسه يتضمن عمله للجماعة ، وأنه إنسان يُتاح له أن يطوى الحياة
في أعطافه ، وأن ينشرها فيما حوله ، وأنه مصرى يضم في نفسه تراث أمة
عريقة مجيدة لها رسالة تقوم على الحضارة والبناء والسلام ، وأن اللفظ
الذي يستعمله للإبانة عن ذاته وهي ضمير المتكلم « أنا » ، يتسع حتى
يشمل إخوته ومواطنيه والأجيال التي سبقت والتي سوف تكرر بعده ، وأن
المجتمع يقوم منه مقام الضمير في ضبط عمله وتصويب اتجاهه ، وتقويم
ذوقه ، وتحديد سلوكه . . .

خاتمة

والفرد تتعدل شخصيته بتعدل بيئته ، ونحن نعيش في عصر اشتدت فيه عزيمة الإنسان وقويت إرادته واتسعت قدرته ، وأصبح عاملاً فعالاً في تعديل البيئة المادية التي يعيش فيها ؛ ومن حسن حظ المواطن المصري أنه جاء إلى الدنيا في هذه البقعة الفذة من العالم ذلك لأن معدل السرعة في تغيير البيئة ، وهو المعدل الذي يزداد يوماً بعد يوم ، يوازن الخصائص الأساسية العامة للمواطن المصري ، وهي الخصائص التي احتفظت بوجودها وفعاليتها على الرغم من الأحداث الكثيرة في التاريخ المصري الطويل . ولم توجد بقعة تدعو إلى استقرار ساكنيها وتكافل وحداتهم الاجتماعية ، وتواصل حياتهم على مدى الأجيال كهذه البقعة . والاتحاد قوامها الأول ... اتحاد الأقاليم بواسطة النيل الذي يمتد فيها امتداد الشريان في الجسم ، واتحاد الطبقات المتكافلة التي يقوم بعضها ببعض ، كما تقوم المدرجات النهرية سواء بسواء ، واتحاد العناصر الطبيعية ذاتها في علاقة الشمس بالنيل ودورته في التصعيد والتكثيف بين الأرض والسماء ، ولا توجد بقعة تلون الحياة فيها بلونها ، وتطبعها بطابعها ، مهما كانت أصولها كهذه البقعة التي ضاعَت معالم روافدها البشرية في التيار العام ، وتمثلتها الأرض كما يتمثل الجسم مختلف ألوان الغذاء . وليست الحياة الإنسانية فيها معزولة عن التطور البشري العام ، ذلك لأنها تتصل بالجماعات الأخرى عن

طريق البحرين اللذين يجتمعان عند كتفها الأيمن والصحراويين اللتين تمتدان على جانبيها ، ولكنها أعطت أكثر مما أخذت ، وأثرت أكثر مما تأثرت ، واستجابت للفكرات العظيمة والحقائق الكبرى التي تلائم استعدادها وفطرتها ومزاجها . ومن هنا آمنت بالتوحيد ودخلت في دين الله أفواجاً . . . وهذه القوة التي تعمل على تعديل البيئة ، وتستعين بكل ما كشف عنه أو استنبطه العقل البشري ، لن تستحدث تناقضاً في الإطار الاجتماعي العام ، إذا فهم هذا الإطار على وجهه ، ولن تزلزل إلا الأوضاع التي فرضت على المجتمع فرضاً ، وجاءته من خارج نفسه وعملت على تفريق وحداته وتقطيع أوصاله وإثارة الخصومة والشحناء بين عناصره وطبقاته . وإذا كان الوجدان الشعبي قد استطاع أن يحافظ على وجوده المتكامل على مدى التاريخ ، وبرغم الأحداث ، ويحقق إرادته في وجه الطغيان والإقطاع والاستعمار ، فإنه من غير شك سيفيد من تعديل البيئة المادية في ربط أجزائها بالطرق التي تخطها طولا وعرضاً وتجعلها طوع الساكنين والسالكين جميعاً ، كما أن تعدد وسائل الاتصال وسرعتها ، بل وقدرتها على نقل الأفكار والتجارب والمشاعر والصور والكائنات والأشياء سيرفع من طريق هذا الوجدان الشعبي كل ما كان يعوقه في الماضي عن النمو وكل ما كان يحول بينه وبين تحقيق ذاته بالتعبير الكامل الصريح المبرأ من التلفيق والإيهام والتخدير .

ولن يسمح هذا الوجدان بعد الآن بالخروج عن الإطار الاجتماعي العام المرن ، القابل للتعديل كلما تعدلت البيئة المادية ، ولن يقف سلبياً

أمام عوامل الهدم والتفريق ، وسيرد بفاعليته الإيجابية الآحاد الضالين أو المنحرفين إلى إبطاره ، وسيحاول جاهداً أن يعالج الشذوذ والنتوء لكي يحافظ على خصيصته الأولى في النزوع إلى التوحد والانسجام .

والرباط المقدس الذى تلتقى فيه الأجيال الحية المعاصرة بالأجيال الكثيرة التى مضت ، والأجيال الكثيرة التى سوف تأتى ، إنما هو اللغة ، ومن أجل ذلك كان المجتمع أسبق المجتمعات إلى الاحتفال باللغة وتقديسها لأنه مجتمع مستقر موصول التاريخ . واستقراره واتصال تاريخه دفعاه إلى الاحتفاظ بترائه لتفيد الأجيال بعضها من تجارب بعض ولتحقق الحياة بوساطة اللغة ، وغيرها من وسائل التعبير ، إرادتها فى التطور والتقوم ، ولذلك فرض المجتمع المصرى على نفسه وعلى العالم تدوين اللغة ، وهو الذى توسع فى الرمز عن الأشياء والمعانى بالمخارج والأصوات ثم بالصور والحروف ولكن اللغة ليست لهجة معينة من اللهجات التى يستعملها المجتمع ، ولكنها رصيد المجتمع كله فى التعبير عن نفسه ، وهى منظمة اجتماعية ، أو قل إنها أهم المنظمات الاجتماعية لأنها تعكس المجتمع وتصل ما بين أفراده وأجياله ، وهى فى الوقت نفسه تصون هذا المجتمع وتدفع منه ما قد يخرج به عن طبيعته أو يكدر صفحته ، والأصل فى اللغة هو الأصوات المحددة المعانى والدلالات التى اصطلح المجتمع عليها ، والتدوين وسيلة من وسائل حفظ التراث وترسيبه ونقله عبر الزمان وعبر المكان . وما يبدو من خلاف بين اللهجات مصدره توزيع اللغة على البيئات الصغيرة والمجتمعات الصغيرة وقد يحكى هذا الخلاف ظواهر إقليمية وطبيعية ومهنية أيضاً ، بيد أنه

خلاف ظاهري لأن الدرس المتعمق لهذه اللهجات سيكشف ما بينها من روابط متواشجة ، ويميط اللثام عن علاقات قديمة متجذرة بين مصر وجاراتها . وانقسام المجتمع إلى أميين وقارئین انقسام ظاهري أيضاً ، لأن للجميع قدراً من الثقافة بمفهومها الاجتماعي . والحياة تعمل من جانبها على التقريب فالتوحد بين اللهجات ، والمتعمق يرى أنها تتعاون فيما بينها ، وتبادل التأثير والتأثير ، وهي كلها تشير إلى نموذج موحد قريب ، تعين عليه وسائط الاتصال الجديدة التي تتوسل باللغة المحبورة في القيام بوظيفتها الاجتماعية ، وسوف تلتقي هذه اللهجات التقاء لغة الحديث ولغة الكتابة وتصبح اللغة أكثر طواعية للتعبير وأقدر على التجميع والتوحيد لا بين عناصر الوطن المصري وحده ، ولكن بينه وبين الشقيقات العربيات أيضاً ، مع الاحتفاظ بمقوماتها الأساسية التي يزخر بها أدبها الفني المتنوع . وينحط من يظن أن العادات والتقاليد لا وظائف لها ، ولما كنا نعيش في فترة يأخذ فيها معدل السرعة في ازدياد خطواته ويضعف من القدرة على التعديل والتطوير والتغيير ، فإننا نستطيع أن نقول إن العصر الذي نعيش فيه عصر انتقال لم نشهد له مثيلاً من قبل . والواقع أن اصطلاح الاجتماعيين والمؤرخين على عصور كثيرة بأنها فترات انتقال صحيح ؛ ولكن انطباقه على مجتمعنا في هذا العصر أصح ، ذلك لأن التاريخ البشري كله يعد بطيء الحركة لا يكاد يلمح التغيير فيه إلا في فترة طويلة ، ثم أخذ التغيير يركض في أوائل هذا القرن وكان مجتمعنا يسرع الخطو بلا تساق أو انسجام في حركة منظماته وطبقاته وعناصره

ويدفع بقوة تأتية من خارجه لمصلحتها لا لمصلحته ، ومن أجل ذلك وقع كثيرون من الأفراد في حيرة بين عادات وتقاليد درجوا عليها ، وأخرى تفرض عليهم فرضاً من خارج نفوسهم . وأدت بهم الحيرة إلى النظر في القديم وفي الحديث ، واختلفت بينهم وجوه الرأي ولولا ما فطر عليه المجتمع من تماسك لا نفرط عقده وضاع طابعه الذى حافظ له على شخصياته المتميزة ، وكان الأجدر ألا تؤخذ العادات والتقاليد بظواهرها ، ويحكم عليها حكماً سطحياً ، وإنما تبذل العناية فى التعرف إلى وظائفها الاجتماعية ، فما من عادة وما من تقليد إلا وله وظيفة فعالة ، وأساس هذه الوظائف هو الاحتفاظ بإطار اجتماعى ترى الجماعة صلاحه لحياتها وعائده على منظماتها وأفرادها ، وهى ، حتى فى أبسط مظاهرها تثير انفعالات معينة يحتاج المجتمع إليها ولا يفرغ شحنتها ، وإنما يستعين بها على القيام بمختلف وجوه النشاط ، مثلها فى ذلك مثل المولد الكهربى . . وهذه العادات وتلك التقاليد بعضها يظل محتفظاً بقدرته على القيام بوظيفته الاجتماعية وبعضها الآخر يعجز عن العمل ويصبح كالعضو الأثرى فى الجسم . ومجتمعنا فى فترة الانتقال الخطيرة هذه يستحدث وظائف جديدة ، والوظائف تخلق الأعضاء - كما يقول أصحاب علم الأحياء - وإن استمرت الوظائف القديمة على عملها أجيالاً ، استحدثت عادات وتقاليد جديدة وهكذا ، ومن ثم كان لزاماً علينا أن نحافظ على العادات والتقاليد ذات الوظائف الحية فى مجتمعنا ، وألا ننكرها لمجرد قدمها ، أو لأن أفراداً منا تفتنهم نماذج اجتماعية أجنبية ، وأن ننفض عن كياناتنا

العادات والتقاليد التي فقدت وظائفها الحيوية ، لكي نعين التطور على الحركة ، ولكي نقلل من عدد الضحايا في المجتمع ، ولكي نخلص هذا المجتمع من الحيرة بين النماذج الاجتماعية المتباينة أو المتناقضة ، وأن نتبين ، إلى جانب هذا كله ، الوظائف الاجتماعية الجديدة ، ونقيس قدرتها على الثبات وملاءمتها للتطور وأن نجسمها في عادات وتقاليد جديدة ، دون أن ننفر منها لمجرد طرافتها ؛ لأن المعول في المجتمع إنما هو الوظيفة الإيجابية التي تسير النموذج الاجتماعي العام وتصلح للثبات والتعديل كلما تغيرت البيئة المادية والاجتماعية .

وليس من شك في أن أهم العادات والتقاليد إنما هي التي تتصل باللبنة الأولى التي يتألف المجتمع منها ، ويقوم بها ، وهذه اللبنة الأولى ، كما أسلفنا ، هي الأسرة . وإذا كانت القبيلة أسرة كبيرة هرمية الشكل بطريقة النظام ، يقوم الأب فيها على مصالح أفرادها ، وكانت الأنساب هي قوام تراثها فإن مجتمعنا الذي استقر في هذه البقعة الفذة يتألف من أسر . ومن أجل ذلك احتفل المجتمع منذ طفولته بالزواج ، وجعل له شعائر ومراسيم تحكى الإطار الاجتماعي الذي أقره ، والذي يحس بحاجته إلى دوام وجوده وتواصله على ممر الأجيال . والناظر في أسمى العواطف الإنسانية وهي الرحمة ، يجد أصلها اللغوي من العلاقة الأسرية ، ذلك لأن ترابط أفراد الأسرة الواحدة لا يعدله في قوته ترابط آخر . ونظم المجتمع تكوين هذه اللبنة في إطاره العام منذ اللحظة الأولى ، ورسم لها المثل الذي تسير عليه وجعل اعترافه شرطاً أساسياً لتأليفها ، ثم أحاطها بكل

ضروب العناية والرعاية ، نلمح ذلك في العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج كما نراه في العرف الذى ينظم علاقات الأفراد والعناصر والطبقات بعضها إلى بعض . والعرف من الناحية الاجتماعية هو القانون غير المكتوب للمجتمع ، وهو افعلى ، وبخاصة فى هذه الناحية ، من القوانين الوضعية . والمجتمع بعاداته وتقاليده وعرفه يحدد علاقة الزوجين ، كل منهما قبل الآخر ، وعلاقتهما بالبنين ثم بالمجتمع كله بعد ذلك ، ويضع القوانين الداخلية والخارجية التى تضبط اختيار الشريكين ، كل منهما للآخر فى نطاق أجيال معينة وفى مجال وجدان جماعى معين ووفق نموذج اجتماعى معين أيضاً . وهو لا يقر عدم التكافؤ الصارخ بين الشريكين ويحافظ على الطابع القومى فى الاختيار محافظته على ثروته البشرية . وإذا كان المجتمع يقدس الأسرة ويحافظ عليها ويصونها من التقليل ، فإنه ينفر من الطلاق الذى لا يتصل باستكمال النموذج المقرر للأسرة ، ولا يعترف به إلا فى حدود ضيقة ولأسباب قوية تتصل بكيان الأسرة إتصالها بكيانه ... وليس المجتمع بناء يتألف من لبنات تقوم كل واحدة منها بنفسها وإن تراصت وانتظمت بحيث يقوم بها البناء كله ، ولكنها منظمات اجتماعية متفاعلة ومتكاملة . والوجدان الشعبى صورة أرقى من الوجدان القبلى . وهذه الأسر تماسك فيما بينها تماسك الخلايا الحية فى الجسم الذى يستوى على هيئة معروفة مشخصة ذات ملامح وقسمات . ومن ثم كان حرص المجتمع عليها حرصه على ذاته القومية . وهو يرسم النموذج الذى تحتضيه كل أسرة ، وهو نموذج واحد عام ، ولكنه يرسم فى الوقت نفسه اتصال هذه

الأسر بعضها ببعض اتصالاً عملياً ونفسياً اجتماعياً، ويقاوم من أجل ذلك الخروج على النموذج مقاومته لتراخي الأواصر بين مختلف الأسر والعشائر التي تنتظم المجتمع كله . ويؤصل الفضائل الأخلاقية والاجتماعية في نفوس الأفراد لكي يحافظ على مقومات الأسرة ومقوماته في آن واحد ، ومن ثم جعل الأسرة هي نخلته الحية وأقامها على الدين والأخلاق والقومية والوطنية . وكانت العوامل المصطنعة التي تقطع أوصال المجتمع ليسهل عليها تسخير واستغلاله ، تثير وعياً طبقياً لا تسيغه البيئة الطبيعية ولا يلائم فطرة الشعب المصري . وأطلق الأجانب الوافدون على هذا الوادي عبارة « أصحاب الجلاليل الزرقاء » كناية عن الفلاحين الذين يعدون قوام المجتمع المصري كله ، والذين يستخرجون من الأرض الطيبة الثمرات التي يعيش المجتمع عليها ويأكل من خيرها . واستحدثت هذه العناصر الأجنبية ضرراً من الاستعلاء على أصحاب الجلاليل الزرقاء وعبروا بذلك عن استعلائهم على المجتمع كله ، ثم فصلوا بينه وبين الطبقات الحاكمة الأجنبية ومن لا ذ بها وحسب عليها ، وبرروا بذلك تحكمهم في الفلاحين وتسخيرهم إياهم واحتكارهم لثمرات عملهم . وظل هذا الاستعلاء المصطنع أجيالاً متعاقبة ، وكان أصحاب الجلاليل الزرقاء يقاومونه ، ويظهرون عليه حيناً وينهزمون أمامه أحياناً . ومن العجيب أن الاستعمار الغربي أدرك ما لهذا الاستعلاء من أثر ، فبرز وجوده واستغلاله بالدفاع عن أصحاب الجلاليل الزرقاء ، وعمل في الوقت نفسه على سلخ المنظمات التعليمية عن الريف والقرية ، واستحدثت بذلك هجرة منظمة تقوم بالأعمال الإدارية وتنقطع صلتها

بالأرض الطيبة إلى جانب ما توسل الاستعمار به من استغلال التعليم في التطويع لرغباته وحبس القوة المتعلمة في نطاق محدود لا يسمح لها بنمو الشخصية وحرية الفكر والعمل للصالح العام ، وفرض أزياء وأنماطاً تناقض ما درج عليه المصريون الذين يعيشون بالزراعة وللزراعة ؛ ولكن المجتمع بما فطر عليه من حيوية وصلابة ونزوع إلى التوحد ، عمل على جعل المدرسة منظمة اجتماعية ، وحاول أن يعيد إليها وظيفتها الإيجابية في إصلاح البيئة الزراعية ووصل ما انقطع بين المدرسة والقرية. وستكون اللامركزية في الخدمات عاملاً فعالاً على احتفاظ الريف بمتعلميه ، والإفادة منهم في إصلاح القرية من الداخل وبإرادة أهلها ، ووفق النموذج الذي يرتضون ، لا من الخارج وبأيدي أجنبية ، ووفق نموذج لا علاقة لهم به ولا حاجة بحياتهم إليه. . . أما المدن التي تركز فيها أسباب الحكم وتتجمع وسائل التجارة والصناعة ، فقد كانت وحدات منفصلة . وكان هذا الاستقلال الذاتي يناقض طبيعة النيل التي تجمع بين الأقاليم والعناصر في صعيد واحد ، وبشريان واحد ، وكانت الأسوار تحيط بكل مدينة ، وقد مر بك أن الأحياء كانت أسوار عشائر وطوائف وأنها كانت تغلق هي الأخرى بأبواب ثقال ، ثم حرصت الدول الحاكمة الأجنبية على أن تحكم المجتمع كله حكماً مركزياً ، فبرز الموظفون على غيرهم من عناصر المجتمع ، وكان رؤسائهم من غير المصريين ، وسودوا أنفسهم عليه وتدفقت الثروة كلها في القاهرة والإسكندرية وأصبح البون بينهما وبين سائر المدن شاسعاً جداً من الناحية المادية ومن الناحية الاجتماعية. واختلت الجاذبية البشرية في سائر

المدن ، وقويت في العاصمتين ، أو قل احتكرت في العاصمتين . ووقر في النفوس أن العمل فيهما يفضل العمل في سواهما ، وأضحى أمل الموظفين أن يعينوا في القاهرة أو في الإسكندرية ، وإذا نقلوا منهما اعتبروا ذلك عقوبة أو ما يشبه العقوبة . وكان الاهتمام بمناطق الحاكمين وأحياء الأجانب يكاد يستنفذ الجهد والمال ، ولكن « التخطيط القومى » الذى ينظر إلى الوطن كله نظرة واحدة ، قد بدأ يغير من هذا الاتجاه في تغيير البيئة المادية والاجتماعية في المدينة . وبذلك تنمو المدن المصرية نمواً اجتماعياً مطرداً يلاثم قوتها البشرية ويتخلص سكانها من الأسوار النفسية التى جعلتهم يستشعرون الهوان إزاء الحاكمين والأجانب ، وتصبح هذه المدن جوارح في الكيان الاجتماعى يتصل بعضها ببعض وتسير جميعاً على نموذج اجتماعى عام وتفيد جميعاً من ميزانية الدولة في الخدمات العامة وتستعيد منظماتها ما ينبغى لها من وظائف إيجابية وتقوم الحياة فيها على التعاون والتآزر بين الأفراد والعناصر والأحياء .

.. وكل فرد وكل أسرة وكل منظمة في مجتمعنا الحاضر ، لها مكانها ومقامها من هذا المجتمع . وقد مضى الزمن الذى كانت عوامل التفريق والتبديد فيه هي الغالبة . والثورة الصناعية التى بدأناها ، مفيدتين من تجارب الأمم الأخرى ، ترد إلى المجتمع نزوعه الأصيل إلى التوحد وتكبر من شأن العمل في ذاته ، وتجعله قيمة من قيم الحياة العليا ، وتجعله يعود على صاحبه ، وعلى المجتمع معه . وهذه الثورة تستكمل اكتشاف الوطن وتقوى إحساس الشعب بذاته ، وتصل بين الريف والقرية والمدينة ، وترفع

من مستوى المعيشة وتخلق طاقات جديدة ، ولكنها فى الوقت نفسه تساير منطق البيئة المصرية ، وتفيد من تراث الشعب وتحافظ على نماذجه الاجتماعية الصالحة للتطور ، وتخلصه من الكبت والخوف وعقدة النقص ، أمام غيره من المجتمعات . . . ولكى نعين الحياة على التقدم ، ينبغى أن ندرك حقيقة مجتمعنا فى هذه الفترة الحسبية من تاريخنا ، وأن نعاون إرادته التى تنزع بفطرتها إلى الاتحاد والتكافل والتعاون ، لا بين الجيل المعاصر وحده ، ولكن بين الأجيال المقبلة أيضاً ، فنحن لا نعمل لحاضرنا وحده ، وإنما نعمل لمستقبلنا ونطوع الحياة فى أرضنا لأبنائنا وأحفادنا . . . وإذا كانت إنسانية الفرد تتحقق بمعرفة نفسه ، فإن إنسانية المجتمع تتحقق بمعرفة نفسه الجامعة ، والمعرفة فى الحالىن ليست نظراً ولا تأملاً ، ولكنها سلوك وعمل .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٧٣٨٥

I.S.B.N 977- 01 - 5684 - 1

مكتبة الأسرة

إن المجتمع المصرى عبارة عن أمة
موحدة متجانسة متواصلة التاريخ منذ أقدم
العصور إلى الآن. وهذا المجتمع الكبير
تنظمه جماعات صغيرة متفاوتة القدر
والعمر، ولهذه المجتمعات الصغيرة
النظم الاجتماعية علاقات ووظائف
فى ذلك مثل الجوارح والأعضاء
الجسم الحى يكمل بعضها بعض.
يستعرضه هذا الكتاب للكاتب
الدكتور عبد الحميد يونس.



بسعر رمزى مائة وخمسون قرشاً
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب